محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء التاسع عشر

تأليف:
فضيلة الشيخ / محمد الصادق ابراهيم عرجون
عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

المؤاخاة على الحب في اللّه أقوى دعائم بناء حياة الأمة

حينما بدأ رسـول الله ﷺ وهو يرفع مع أصحابه قواعد مسجده الأعظم بالمدينة ليكون دار الإسـلام والمسلمين، ومحفل الإيمان والمؤمنيـن، ومجمـع الهـداة والمهتدين، ومربي الدعـاة إلى الله -بتصحيح التركيب الاجتماعي للمجتمع المسلم بعقد المؤاخاة الاجتماعيـة بيـن أفراد هـذا المجتمع الجديد علـى الحب في الله والحـب لله، وقـال لأصحابه: «تآخـوا في الله، أخويـن، أخوين»- لـم يكن ﷺ يقصد بهـذه المؤاخاة عملًا موقوتًـا يمكن به طلائع وجـود هذا المجتمع من المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأبناءهم وعشـائرهم في سـبيل الحفاظ على عقيدتهم التوحيدية وإيمانهم برسـالة نبيهم إيمانًا مازج أرواحهـم وعقولهم وقلوبهم ودماءهم، واسـتولى على مشاعرهم وإحساسـاتهم، وقد أحاطت بهم الفاقة المادية من كل جانب، ومسـتهم الحاجة والإعواز مسًـا أليمـا موجعًا، فهاجروا إلى إخوانهم أنصـار الله بالمدينة، ليجدوا عندهم متنفسًـا تسـتريح إلـى أريج نسـائمه الإيمانية أنفسـهم، وليكوِّنـوا معهم مجتمع الإيمان والحب في الله، مجتمع التضحية

والفداء للحفاظ على عقيدتهم والعمل على نشر دعوة نبيهم في آفاق الحياة، هداية وبرًا وعدلًا ورحمة -من لقمة عيش، يقيمون بها أصلابهم، وتحفظ لهم رمق حياتهم، وتبقي على ذماء أنفسهم، لينهضوا بواجبهم الأصيل في تبليغ رسالة ربهم، وإعلاء كلمة الله ورفع راية الحق، ونصرة المظلوم، ونشر العدل والمساواة، والقضاء على الاستعباد المادي والاستبداد البشري.

لأن لقمة العيش أدنى مراتب الإحسان عند من يملكون أحط قدر من الشعور الإنساني والإحساس الوجداني، فهي لا تستأهل أن تكون في حساب الرغائب العليا التي يحفل بها ذوو المكارم المتسامية إلى ذرا الفضائل من المصطفين لقيادة الإنسانية بمبادئ الحوافز الروحية والعقلية التي تقود الفكر الإنساني في مسيرته الكونية، وهو يكشف عن أسرار الكون في عناصره الطبيعية، ليقيم على أساسها حضارة إنسانية يسعد بها كل إنسان.

وهؤلاء المصطفون لا تعنيهم المبادئ المادية الهابطة إلا بقدر ما يرون لها من أثر الذرائع الموصلة إلى عظائم الأمور، وعندئذ ينظرون إلى هذه المبادئ نظرًا يعلي من قدرها، ويرفعها عن مزالق الرغائب الرخيصة الهابطة.

فالنبي ﷺ وهو المثل الأعلى في التسامي بمبادئ رسالته السامية بخصائصها الخالدة في عمومها؛ لا يمكن أن يقصد -وهو يعمل على تصحيح التركيب الاجتماعي لمجتمعه المسلم الذي

يعــده لقيادة الحياة إلــى آفاق العزة والكرامــة -إلى مجرد تمكين طلائــع هذا المجتمع من لقمة العيش في ضآلة قيمتها وخفة وزنها وتفاهــة دلالتهــا على مقاصد هــذا المجتمــع الرائــد القائد، لأنه المجتمــع الذي ناطت به العناية الإلهية والحكمة الربانية منصب قيــادة الإنســانية بمــا أودع فيه من اســتعداد ومقومــات وعناصر فكريــة، وإدراكات عقلية، وتنورات قلبية، وإشــراقات روحية إلى ذروة التقــدم الحضــاري علمًا ومعرفة وســلوكًا، وعمــلًا تطبيقيّا لمــدركات الحياة والكشــف عن أســرارها المســخّرة للإنســان، ليأخــذ من الوقوف على بعض تلك الأســرار علميًا، أهبته لتحويل هذه الأسرار من نظريات فكرية إلى عمل إيجابي ينهض بالإنسانية نهوضًا تســتطعم به نعــم الله عليها، وتتذوق برشــفه حلاوة العلم الذي كشف ويكشف لها الأغطية عن عناصر الكون، وما انطوت عليــه هذه العناصر من خفايا وأســرار مادية وروحية مفعمة بالخير والنوافع والفوائد التي ترفع من قدر الإنسان في تفكيره وعمله في الحياة.

هــدف المؤاخاة هو العمل على تحقيق أهداف الرســالة الخالدة:

أجل، لم يكن رســول الله ﷺ يقصد قط بالمؤاخاة الاجتماعية التــي بدأ بها في تصحيح التركيب الاجتماعي لمجتمعه المســلم إلــى مجرد تمكين الذين أخرجوا مــن ديارهم وأموالهم، وأووا إلى

إخوانهم الأنصار، من لقمة العيش، وهي أدنى مطالب الحياة عند الذين يقدرون الحياة قدرها، وإنما قصد رسول الله ﷺ من هذه المؤاخاة الاجتماعية إلى أمر خطير، وهدف بعيد الغور، عميق المستقر، يستمد خطره وعظمته من مقاصد الرسالة الخاتمة الخالدة، ومن تمثل غايات دعوته ﷺ. ومن مكانة أمته ومنزلتها التي وضعها الله -تعالى- في إطارها القيادي لتحقيق أهداف هذه الرسالة العظمى ومقاصدها ومناهجها التربوية، وطرائق سلوكها في قيادة الإنسانية إلى مقدورها الفكري في الآفاق الحضارية المشرقة بنور الإيمان.

وأهدافُ رسالته ﷺ ومقاصد دعوته أن يجعل من الإنسانية كلها في مشارق الأرض ومغاربها أمة واحدة، متآخية متحابة بروح العقيدة التوحيدية، تؤمن بالله ربًا وتؤمن برسالاته منهجًا وطريقًا إلى سعادة الحياتين، حياة الوسائل وحياة المقاصد والغايات الخوالد، وتفرده بالتعبد له وحده في وحدة أساسها النشأة الموحدة في مادة التوالد الأصيل، المخبر عنه في قول الخلاق العليم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ (الحجرات: ١٣)

وحدة يحوطها الحب الأخوي، ويسودها العدل المطلق في مغاديها ومراحاتها على اختلاف أوطانهم وأزمانهم وأجيالهم، وتظللها المساواة في الحقوق والواجبات، فلا يبقى بينها أفراد أو

جماعات، وأمم وشعوب تفاضل بين غربي وشرقي، ولا بين أبيض وأسـود، إلا بقدر ما أوتي كل فرد من استعدادات عقلية، وما أوتي من روح تعاونية تؤدي للحياة أقصى ما تطيق من خير وإصلاح يجد فيه المجتمع الإنسـاني ما يصبو إليه بعيدًا عن حب الذات المولد (للأنانية) المفسـد للفطرة الأصيلة المفـرق للجماعة المتآخية، والمفاضـل بين الناس في الرغائب الشـهوية الدنيا، المتلاهي عن القيم الروحية المستهتر بقدرات العقل الإنساني وثبات الفكر، والخلقُ كلهم عيال الله يعولهم بنعمه، ويربيهم بفضله وإحسانه، وخير الناس أنفعهم للناس.

وأول مدارج الوحدة الإنسانية مدرجة الوحدة النَشْئِيّة التي تجعل من التآخي في التوالد حقيقة مادية واقعية في حياة البشرية منذ أول وجودها، كما جاءت بذلك النصوص القرآنية الحكيمة المحكمة، ثـم جـاءت الرسـالة الخاتمة لتوحد سـلائل الإنسـانية وأنسـالها بالإيمـان بإلـه واحد، هو الذي خلقهم من نفـس واحدة، خلق منها زوجها، وبث منهما السلائل والأنسال رجالًا ونساء، ليكونوا إخوة في الإيمان كما كانوا إخوة في النشـأة الأولى ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٦٣)

وقد قامت الرسالة الخاتمة الخالدة أول ما قامت به من عمل أن وطدت دعائم هذه الوحدة الإيمانية، ورسخت ركائزها على أسس من مدركات العقول وقواطع البراهين الكونية.

وبهذا التآخي المتكامل بين الوحدتين النشئية والإيمانية -وهما مما انفرد الله بهما إبداعًا وهديا- تمت القاعدة العظمى للرسالة الخاتمة الخالدة، وهذه القاعدة هي الأساس الذي قام عليه كل ما جاء بعده من تشريعات تعبدية، وأحكام عملية اجتماعية، وبهذا تتضح معالم رسالة المجتمع المسلم أينما حل من أرض الله.

منزلة المجتمع المسلم من الإنسانية في تحقيق أهداف الرسالة الخالدة:

أما مكانة المجتمع المسلم ومنزلته من الإنسانية لتحقيق أهداف رسالته، فهي مكانة الأب المشفق الرحيم من أولاده في تنشئتهم وتربيتهم، وإعدادهم لمواجهة الحياة بكل ما فيها من آلام وآمال.

فالأب لأولاده في دور طفولتهم هو الساعي الدءوب لطلب الرزق الطيب، ليقوتهم حتى تشتد سواعدهم وتقوى سوقهم على حمل صدورهم وهاماتهم بما فيهما من أفكار وأسرار، لينطلقوا في فضاء الحياة ساعين عاملين.

ولكن هذا الأب المشفق الرحيم تفرض عليه أبوته أن لا يغفل عن النظر في مواطئ أقدام أولاده، ليعرف ماذا تطأ هذه الأقدام خشية أن تسيخ بهم مواطئ الرخاوة، أو أن تقسو عليهم ناشفات المواطئ فتدمي أقدامهم وتعوقهم عن المضي قدما في تحقيق شرائف رغائبهم.

فهو في نظره إلى مواطئ أقدام أولاده مرشد قويم وناصح أمين، وموجه عليم، يرجو ويأمل، ويرشد ويقوم، وينصح ويسدد، يكشف عن المزالق، ويجنبهم الوقوع فيها، وينير منائر الطريق وينبئ عن المعالم، ويرجو لهم التوفيق.

والأب لأولاده في دور الشباب والتوثب هو السند القوي، يأخذ بيد من يعثر في توثبه، ويَرِيش المحتاج في سعيه حتى يتغلب على حاجته(١)، ويهدي الضال في طريقه، ويخرج الحيران من دياجير حيرته، ويثبته في أمره، ويعلم الجاهل حتى ينقذه من مضايق جهالته، ويشجع الموفق على الاستمرار في أخذه بأسباب توفيقه، ويحفز الكسول على الحركة والنهوض حتى يلحق بإخوته.

والأب لأولاده في دور رجولتهم أخ ورفيق وصاحب وصديق، يشاورهم ويسمع لمشورتهم، ويشاركهم الرأي والعمل، وينصفهم في مشاركته لهم ويستهديهم، ويهتدي برأيهم إذا لمعت في أفقه لوامع الإشراق المنير، يأخذ منهم في غير مطمع، ويعطيهم في غير سرف ولا تبذير، ويعلمهم ويتعلم منهم، هكذا ينبغي أن يكون موقف المجتمع المسلم من الإنسانية كلها أينما حلت، وهي مكانة القائد من جيشه، ولهذه المكانة أوضاعها وشرائطها في إنجاح مهمتها، فهي مكانة الآمر المطاع الذي

(١) راش المحتاج: أكسبه المال (المجلة).

يدرس ويخطط للسلم والحرب والذي يجب عليه أن يكون على أتم علم بما يجري من حوله في الحياة، حتى لا يفاجأ بقاصمة الظهر، والذي يجب عليه أن يوفر لحشوده وكتائبه جميع ما يحتاجون إليه من سلاح ودربة ومهارة، والذي يجب عليه أن يوفر لجنده طعامهم وملابسهم ومساكنهم في غير سرف يقتل النخوة، ولا شظف يميت الأمل في أنفسهم، والذي يجب عليه أن يكون يقظ البصر والبصيرة، لا ينيم ولا ينام.

وهي مكانة الرائد من أهله، والرائد لا يكذب أهله وعليه أن يكون حذرًا لا يخدع في رأيه لهم، يختار في ريادته المرعى الخصب، والمأمن الذي لا يؤتى، والمستقر الذي لا يقتحم.

وهي مكانة المربي في مدرسته ومعهده وجامعته، ومكانة المربي هي مكانة الأب الحازم من أولاده، يتألفهم إليه بالمحبة المتوفرة، ويقربهم إلى قلبه بالعاطفة الواعية، ويعطيهم بسلوكه في حياته الخاصة والعامة معاقد الأسوة الصالحة المصلحة، يقرأ معهم ويسمع منهم، ويناقشهم في غير عنت ولا إعنات، ويفيدهم من كل جديد في مجالات التربية النفسية والفكرية والبدنية، تغلب رحمته غضبه، فلا يقسو على المنحرف قسوة تخرجه إلى النشوز والشذوذ، ولا يتميع مع المتساهل ميعة تفسد خُلُقَه وتهلهل أواصر نفسه، ولا يضيق صدره بأحاديثهم، ولا يهجم معهم على ما لم يعرف، فتذل أمانتهم، ولا يكذب لهم أو

عليهم فتســوء به عقيدتهم وتذهب الثقة به من قلوبهم وعقولهم، ويعز انتفاعهم به في سلوكهم ومناحي تربيتهم.

هذه مكانة المجتمع المسلم التي وضعه الله في إطارها بالنسبة إلى الإنســانية كلها أينما وجدت في فجاج الأرض ومناكبها، فهو للإنســانية بمنزلة الأب المشــفق الرحيــم، ومنزلــة القائد اليقظ الحــذر، ومنزلة الرائد الناصح الأمين والمعلم المربي الحكيم، لا تطغــى أبوته في رحمتها علــى قيادته في حزمها وحذرها، ولا تعلو ريادته في نصحها وأمانتها على تربيته السلوكية وحكمتها.

فالمجتمــع المســلم هــو كل ذلــك فــي أفــراده وجماعاته مع الإنســانية كلها في قيادته لها، أفرادًا وجماعات، وأممًا وشعوبًا، ومن هنا كانت دعائم التربية الأولى لهذا المجتمع المســلم قائمة على توزيــع الخصائص القيادية المقومة لشــخصية هذا المجتمع في أفراده وجماعاته، ليتســنى له بهــذا التوزيع الخصائصي القيام بواجباتــه في قيادة الإنســانية إلــى آفاقها الحضاريــة المقدورة لها على اختلاف استعداداتها في التفكير ومدركات العقول وتقلبات القلــوب والألــوان واللغات، وأســاليب المنطق ووســائل العيش، وتفــاوت جوانــب الحياة فــي الفقر والثــراء، والإعــواز والترف، والإيمــان والإلحــاد، والعلم والجهــل، والحق والباطل، والرشــد والغي، والهدى والضلال.

منزلة المجتمع المسلم من الإنسانية تشريف وتكليف:

وهذا في الواقع تشريف للمجتمع المسلم، وتكليف لقادته وذوي رأيه ومفكريه؛ لأنه في سموه وتساميه شرف ليس فوقه شرف، وهو في باهظ مشاقه وقساوة متاعبه، وأثقال أعبائه وفوادح حِمله تكليف تنوء تحت وطأته شوامخ الراسيات.

بيد أنه تكليف محبب إلى نفوس هذا المجتمع الإيماني الصادق الذي يعمر قلب كل مسلم بأن خاتمية رسالة الإسلام للشرائع الإلهية تجعل من المحال أن يأتي منهج إلهي في العقيدة والتشريع يستدرك على هذه الرسالة الخاتمة في عقيدتها التوحيدية وتشريعاتها الاجتماعية.

وهذا يقتضي كمال أصولها ورسوخ قواعدها، ويقتضي تحميل المؤمنين بهذه الرسالة الخاتمة أن يكونوا في تساميهم بواجباتهم على مستوى مسئوليتهم عن نشر هذه الرسالة وتبليغ دعوتها والحفاظ عليها وحمايتها في الكمال الإيجابي العملي، وإلا فما الذي كان يحمل خبابًا وبلالًا وسميةَ أمَّ عمار بن ياسر على صبرهم الذي فاق كل صبر، وهم تحت سياط البلاء والعذاب لا يستعفون.

فهؤلاء الذين ربتهم رسالة الإسلام إذ نهضوا بواجب قيادة الإنسانية في حياتها الفكرية والاجتماعية، نهضوا وهم موقنون بما يلقون في مسيرة رسالتهم من باهظات الآلام ومشقات التكليف القيادي.

وقـد كانت فـي طلائعهم مثل عليـا لهذا الإيقـان، احتملوا به ما تتفسـخ تحت وطأته الشـم الصلاد، فهم كانـوا بهذا الاحتمال الصبور آية من آيات الله في هذا المجتمع المسلم، أقامها الله برهانًا على ما أودع في رسالتهم الخاتمة الخالدة من قوى ذاتية تكمن في عقيدتها التوحيدية وتشـريعاتها الاجتماعيـة، وتربيتها لمعتنقي مبادئها تربية جعلت منهم مصنعًا لقادة الإنسانية ما كانوا قائمين بأمر رسـالتهم آخذين بمبادئ تربيتهـا التي خرّجت الرعيل الأول في قيادة الإنسـانية بسـلطانهم الروحي، وعزوفهـم عن التكالب المادي لإشباع الرغائب الشهوية.

حتـى إذا انحرفوا عن سـمتها، ومالت بهم زخـارف الدنيا عن صراطهـا المسـتقيم نزلوا عـن ذرا أمجادهم إلى مهـاوي التهالك المـادي، فأخلفـوا الله مـا وعـدوه، وتفرقـت كلمتهم، وتشـتت جمعهـم، وطمـع فيهم من لا يدفع عن نفسـه، فاسـتُعْبِدُوا فكريًا واجتماعيًا، وانحسر المد الإسلامي، وتوقف سير الرسالة الخاتمة الخالدة، وعـلا صوت الدعايات الطبولية تكـذب وتكذب، حتى خيـل إليها أنها تصدق في كذبها، واحلولى(٢) في أذواق الفارغين عن حقيقة الإيمان طعم هذا الدعايات الكاذبة، فتخيلوا أن الألسنة المتفيهقة تسـتطيع أن تقوم مقام الأسنة المشرعة، فأكذبهم الله،

(٢) احلولى الشيء صار حُلوًا (المجلة).

وأبى عليهم – إذا أرادوا أن يكونوا كما كانوا قادة أعزة – إلا أن يعودوا كما بدءوا أمة واحدة، تقتحم الغمرات في سبيل استعادة مجدها السليب، وتقدم أضعاف ما قدمت من ضحايا، وتخوض بحار العلم والمعرفة مع الخائضين، وتجعل من هذا العلم الكوني العملي وسيلة تقدمها الحضاري، بغير استجداء وذلة.

والعلم لا وطن له، ولا مالك له إلا من يتخذه قوة يستكشف بها أسرار الكون ليطوع عناصره فيما تشيد به صروح العزة والكرامة ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (الأنفال: ٦٠)

والإعداد للقوة التي تبلغ أقصى طاقات المجتمع المسلم ماديًا وعمليًا يحمل في منطوقه ومفهومه الاستقلال في العلم والعمل، وهذا الاستقلال يعني أن تكون الأفكار والأيدي الصانعة التي تعد القوة أفكارًا وأيديًا من صميم المجتمع المسلم في وطن مسلم، ومصانع مسلمة، تعمل بآلات ووسائل مسلمة.

والخدعة الكبرى التي يعيشها المجتمع المسلم في حاضره هي خدعة الخبرة والخبراء، وهذه الخدعة استعباد فكري واجتماعي وصناعي مقنع، يأخذ وينهب ولا يقدم إلا فتاتًا فاسدًا من بقايا موائده الصناعية.

فإذا لم يتخلص المجتمع المسلم من هذه الخدعة المُسْتَعْبِدة الناهبة فلن يحصل في حياته المخدوعة على طائل، بل سيظل

منهبة مخدوعة للناهبين الخادعين، ولن يستطيع أن يعد من القوة مـا أمره الله به، والدعايات الخطابية لا سـوق لهـا عند الخادعين الناهبين.

هـذه هي حالـة المجتمع المسـلم في حاضره، وتلـك مكانته ومنزلتـه في تربيته الأولى التي أعدته بها رسـالته الخاتمة الخالدة لقيادة الإنسانية.

وقـد جاءت بهذا الإعـداد القيادي نصـوص صريحة كانت ولا تزال ملء سـمع الزمـان في مجـال التطبيق الواقعـي قرونًا كثيرة فـي أجيال وأوطان مختلفة اتسـع فيها نشـر الرسـالة، وعلا فيها صوت الدعوة إلى الله، وتم فيها فتح كثير من الممالك التي كانت تعيش في ظلام عبودية الأباطرة من الأكاسرة والقياصرة، فصنعت منهـم جميعًا أمة واحدة، عرفت وحدة النشـأة، واعتنقت الوحدة الإيمانيـة في العقيـدة التوحيديـة والتعبد لله وحـده، وفي أنظمة الحيـاة الاجتماعية في المعاملات، على رغم اشـتعال نيران الفتن الداخلية التي كانت في سـعارها وسطوة أخذها كفيلة بتدمير كل خير، لولا الاعتصام التربوي بمبادئ الرسالة الخالدة التي رسخت أصولهـا فـي العقول والقلـوب والأرواح رسـوخًا جعـل المجتمع المسـلم في جمهرتـه وغمرته الكاثرة يولي ظهـره للفتن، ويقبل على الجهاد هاديًا فاتحًا ومعلمًا قائدًا.

الاعتصـام بمنهج الرسـالة كان أقوى عوامل القيادة في غمرات الفتن الداخلية:

وقد تأسسـت في هذه القـرون حضارات مسـلمة رفيعة الذرا، شـامخة البنيان، تخطـت الحـدود والحواجز في قـوة فتية، تثب وثبًـا، ودلفت إلى القارة الأوربيـة بعد أن جعلت من البحر الأبيض المتوسـط بجُزره بحيرة إسـلامية، ولو لم يكن للمجتمع المسلم وهـو يعيش داخليًا في أتون الفتن إلا فتح الأندلس، وإقامة حضارة فيها مسلمة عاشت أكثر من خمسة قرون ولا تزال لها خصائصها الفكرية والروحية والاجتماعيـة والأدبية والعمرانية لكفى بذلك مثلًا مضروبًا في تاريخ الحضارات الإنسانية.

بيـد أن الأمـر لـم يقف عند هـذا، بل تخطـى الفتـح التربوي للمجتمع المسلم فوطئ مواطن الحضارات الوثنية، فدخل الصين وأنشـأ فيها حضارة مسـلمة لها خصائصها الذاتيـة في روحانيتها وتفكيرها، ولولا الثورة الإلحادية الشـيوعية لكان لتلك الحضارة المسلمة في الصين أثر مشهود، وأنشأ الفتح التربوي المسلم في الهند إمبراطورية مسلمة ضخمة لا تزال حضارتها قائمة الشخوص والآثار، تتحدث عن نفسها وعن مؤسسيها.

ولقد شرّق الفتح التربوي المسلم وغرّب، وجاس خلال القارة العملاقة آسـيا، ووضع في أرجائهـا وممالكها معالم تربيته، وأقام فيهـا دعائـم حضارتـه التي لا تـزال تحكي عن الماضـي العريق، وتبكي الحاضر المظلم السحيق.

ولقد كان للمجتمع المسلم وجود غامر بتربيته الأصيلة في جمهوريات الاتحاد السوفيتي الشيوعي الملحد الكفور حيث كانت بعض جمهوريات هذا الاتحاد الشيوعي الكفور صورة مشرقة من صور الوطن المسلم الذي أقامه المجتمع المسلم قبل أن تظهر الشيوعية الملحدة بقرون، لا تدانيها صورة حضارية في الفكر والعلم والمعرفة مستمدة من خصائص المجتمع المسلم في التربية، وقبر شيخ الدنيا في السنة ورواية الحديث النبوي الإمام محمد بن إسماعيل البخاري أصدق شاهد للتاريخ.

ولكن الشيوعية الملحدة الحاقدة على المجتمع المسلم أبى عليها حقدها الملحد إلا أن تدمر في وحشية جنونية كل أثر لهذا المجتمع المسلم الذي اتخذت منه عدوها اللدود.

نصوص القيادة في القرآن الحكيم:

(النص الأول):

إن النصوص القرآنية التي قلدت المجتمع المسلم قلائد القيادة الإنسانية لا تزال أصواتها جهيرة تنادي مجتمعها المسلم ليقوم من رقدته، ويمسح عن عينيه رمص الهوان والذلة[٣]، ويأخذ في مسيرته على الجادة، وقد نصبت له المعالم، وأقيمت له على حفافي طريق نهوضه المنائر بمداد التاريخ على كواغد الإمكانات

(٣) رمصت العين: اجتمع فيها وسخ أبيض (المجلة).

الضخمة التي تفجرت ينابيعها في أوطان هذا المجتمع المسلم، والتي ينظر إليها أعداؤه وهم يتلمظون لاختطافها من بين يديه، ولم يكفهم ما نهبوه منها على مدى مرور الزمان، فهل من سميع؟

يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

وهذه دعوة إلى المجتمع المسلم كله في جميع أوطان الإسلام أن يكون داعيًا إلى الخير، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر.

وهذا التعميم في تكليف المجتمع المسلم كله أن يكون داعيًا للخير جريًا على أن (مِنْ) في قوله منكم بيانية، والمعنى: ولتكونوا جميعًا داعين إلى الخير، آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، على حسب استعداد كل فرد وطاقته المادية والفكرية، وليست (مِنْ) للتبعيض لأن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمور نسبية يتفاوت الأفراد والجماعات في القيام بها، ولكن كل فرد في المجتمع المسلم مكلف بقدر استطاعته وهذا من قبيل التكافل السلوكي، ولهذا ختمت الآية بتسجيل الفلاح بأسلوب الاختصاص لجميع الذين يقومون بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقالت: ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

(النص الثاني):

ويقـول القـرآن العظيـم مخبـــرًا عـــــن خصيصـة المجتمع المسـلم القياديــة ووسـائلهـا : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمـران : ١١٠) فهذا إخبار تضمن وعدًا من الله -تعالى- بأن المجتمع المسـلم هو خير مجتمع إنسـاني أخرج للناس من وراء أسـتار الغيب في الوجود ليقود الإنسانية إلى آفاق الإصلاح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذا يعني طهارة الشـخصية القياديـة القائمة على الدعوة إلى الخيـر ، وقولـه تعالى : ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ إشـعار بـأن الدعوة إلى الخيـر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا لم تكن مؤسسـة علـى الوحـدة الإيمانية فلن تؤتـي أكلها ، ولن تجنـي الحياة منها ثمرتها ، فهو من قبيل التنبيه على الأساس الذي يستبقي البناء.

(النص الثالث):

ويقـول القـرآن العزيـز : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة : ١٤٣) والوسـطية في هذه الآيـة هي الخيرية التي أخرج [الله]عليهـا المجتمع المسـلم ليكـون المثل الأعلى فـي القيادة الروحيــة ، والقيـادة الفكرية ، لأن هذا المجتمـع أُخرج للناس من

ضميـر الغيب بعد أن اكتمل للحياة رشـدها بعقيدة لا إفراط فيها ولا تفريـط، عقيـدة لا تحابي الـروح وتعطيها كل رعايـة وعناية وتهمـل القالب البدني الذي اتسـع ليكون مثوى الروح على عظم جلالها وكثرة أطوارها، فلا يتحيف هذا القالب البدني فيحرمه من مقوماته حتى يعجز عن إيواء الروح في مستقره ومثواه.

ولا يحابـي هذا القالب المادي فيعطيه كل رغائبه المادية حتى تفسـد عناصره، وتتفتت مقوماته، وتطغى غرائزه وشـهواته على مطالـب الروح فتتجمد حتى تسـتحيل إلى مـادة مظلمة عمياء أو إلى ما يشـبه المادة المظلمة العمياء، ويرتكس فيه المعنى الإلهي الـذي يقود الحيـاة بزمامه وهدايته، فالعقيدة التـي أُخرج بها هذا المجتمـع المسـلم إلى النـاس عقيـدة فطرية، لا تعقيـد فيها ولا تفلسـف يكد الفكر ويشق عليه ويعنت العقل، ويجافي إشراقات الـروح وتنـوُّر القلب ورقة الوجدان، كما أن هـذه العقيدة لا تميُّع فيهـا تميعًـا يذهب بفتـوة الإدراكات العقلية، ويحـد من توثبات الفكر ومغامراته في مجالات استكشافاته العلمية الطبيعية.

وهذا المجتمع المسلم كما أخرج للناس بهذه العقيدة الفطرية الوجدانيـة، أخرج لهـم بفكر منطلـق بأجنحة الحريـة، لا تقيده أغلال التقليد الأبله للآباء والأجداد، ولكنه في انطلاقه لا يكبو ولا يجمح، لأنه متوازن الخطا في انطلاقة، وكأنما خفق أجنحته منائر

مضيئة تهديه بما ترسله في طريقه من أضواء كاشفة وأصوات دالة ترشده وتسدده.

وهـذا المجتمع المسـلم أخرج للنـاس وفي يده ميـزان العدل الـذي لا يميل بالفرد فيسـقطه من كفة الحيـاة، ويجعله قطعة من آلة تعمل بغير إرادة، ولا يميل مع الجماعة ميلًا يجعل وجود الفرد أشـبه بالمهملات التي يُسـتغنى عنها، ولا يميـل بالمجتمع ميلًا يظلمه، فيجعله كمية من أعضاء مفككة الأواصر لا ارتباط بينها، وكل عضو يستطيع أن يستأثر بما ينفعه في خاصته، ولو كان ذلك النفع على حساب موت الآخرين.

الوعد بالنصر إذا حقق المجتمع المسلم عوامل القيادة:

وبهـذا التركيب العقـدي والفكري والاجتماعـي الذي أخرج بـه المجتمع المسـلم إلى النـاس وضع الله -تعالى- فـي يده زمام القيـادة الإنسـانية فقـال: ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ لأنـه بتركيبـه المحكـم كان هـو الرقيـب المهيمن على الحيـاة الذي يهدى وينصح ويرشـد، ويبصر، ويقيل العثـرة، ويهيِّء الفرصة، وإنمـا كانت لـه هذه الرقابة وهـذه الهيمنة على حيـاة الناس لأنه يحمل في يده الميزان الذي يزن كل عمل فردي أو جماعي، وهذا الميزان إنما جاءت به إليه رسـالته الخالدة على يد رسولها المعلم

الصدوق ﷺ، ومن هنا كان هذا الرسول الأعظم هو الشهيد على خيرة أمته وعدالتها لأنه الرقيب المهيمن عليها، الذي يزكيها في شهادتها على الناس، كما أخبر الله -تعالى- عن ذلك بقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وهذه الشهادة من الرسول الأعظم ﷺ لأمته تتمثل فيما وضعه بين يديها من مبادئ رسالته الخاتمة الخالدة المهيمنة على رسالات الأنبياء والمرسلين، كما بينها القرآن العظيم ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨) فهيمنة القرآن الحكيم على الكتب الإلهية التي سبقته شهادة منه على صدق هذه الكتب فيما جاءت به من عند الله قبل التبديل والتحريف، والقرآن الحكيم هو دستور رسالة المجتمع المسلم التي يقود بزمامها الحياة والناس، بما أنزل فيه من النور والهدى والحكمة ونظم القيادة، وشهادة الرسول ﷺ على عدالة أمته ووفائها بشرائط القيادة التي نيطت بها لأنها خير أمة أخرجت لتقوم بموجبات هذه القيادة، بيان لمنزلته ﷺ بوصفه المربي الأعظم، والمعلم العليم الأكمل في إعداده لطلائع المجتمع المسلم لتسلم زمام القيادة، وليكونوا من بعده قدوة لمن يأتي بعدهم من القادة والدعاة إلى الله لتجنيب الإنسانية مزالق الزلل والتعثر، والأخذ بمبادئ الخير والإصلاح.

وإذا حقق المجتمع المسلم ما نيط به من قيادة الإنسانية ماديًا وفكريًــا وروحيًــا واجتماعيًــا ـ بما علِّــم ـ كان محققًا لموعود الله لــه بالنصر في قولــه تعالــى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (الحــج: ٤٠، ٤١) وربــطُ نصــر الله -تعالــى- لهــذا المجتمع المســلم بنصر هذا المجتمع لله -تعالى- بنصر رســالته -بيــان لما يجب أن تســتهدفه قيادة الإنســانية في ســيرها، وهو نصر رســالة الله بإقامة معالمها ونشرها بين الناس في أرجاء الأرض أينمــا كانوا منها، بما مكــن لهذه القيادة من أســباب النصر التي تســتوجب شــكر المنعم، ولما كانــت الصلاة أعظم صور شــكر الربوبيــة لما فيها من أخلــص مظاهر العبودية أبرزت في صورة من الأســلوب الشــرطي الذي يقتضــي التلازم بين جانبيه من الشــرط والجواب، ثم عطفت عليها أختها (الزكاة) وهي واليتها في فضل الشكر، لأنها الركن الاجتماعي الذي يعقد أواصر المحبة والإخاء بين أفراد المجتمع المسلم.

والتمكين من الأمــر بالمعروف والنهي عن المنكر لإصلاح ما يفســد من جوانب المجتمع المسلم في قيادته للحياة هو الوسيلة العظمــى للعمل القيــادي لهــذا المجتمع، وهو يشــمل التمكين المــادي بإعــداد القــوة الماديــة لــردع أعــداء الله وأعــداء الحياة

الصالحـة، إلى جانب إقامة حدود الله بالقوة القاهرة لزجر العابثين بمعالم الاستقامة الخارجين على مبادئ الرسالة الخالدة.

ويشـمل التمكيـن الروحـي الذي يسـتهدف طهـارة النفس، والتمكيـن الفكـري الذي يطلق الفكر المسـلم في ريـاض العلم والمعرفـة ليَعْلَـم ويُعَلِّم، ويشـمل التمكين التربـوي في المنهج السـلوكي المسـتقيم الذي يقتدي به في مسـيرة الحيـاة الخلقية السـالكون على نهج القيادة الذي رسـمته مبادئ الرسالة الخالدة في كتابها الحكيم.

العدل أساس المنهج السلوكي في قيادة الإنسانية:

وهـذا المنهج السـلوكي هو الذي يربط المجتمع المسـلم في قيادة الإنسـانية بمنهـج إلزامـي، لا يعرف اللجاجـة، ولا يرضى إلا بالصراحـة الصارمـة، ذلك هو منهـج إقامة العـدل بين الأفراد والجماعات والأمم والشـعوب، لأن العدل في شـمول مواطنه هو دعامة القيادة الموفقة، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ (النسـاء: ١٣٥) وهذا نـص قرآني صريح فـي تكليف المجتمع القيـادي المسـلم تحقيق العدل علـى أتم صوره وأكمـل أحواله، فالعـدل علـى النفس، وعلى أقرب ذوي القربـى، كالعدل مع غير النفـس وأبعد البعداء، وفي قوله تعالـى: ﴿كُونُواْ﴾ أمر للمجتمع المسلم في جميع أفراده وجماعاته أينما حلوا من أرض الله، وحيثما

كانوا في أوطانهم المتقاربة أو المتباعدة، وهو أمر كينونة يُشعر بمادته بالإلزام والالتزام، والتهيؤ والانبعاث للقيام بإقامة منهج العدل في الحياة، وفي قوله ﴿ قَوَّٰمِينَ ﴾ بصيغة المبالغة إيماء إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم من النهوض بإقامة معالم العدل، بكل ما أوتي من قوة مادية وروحية، مشمرًا عَنْ ساق العزم في بذل الجهد والتحفز للعمل في سبيل توطيد دعائم العدل الاجتماعي، حتى تكون إقامة العدل دَيْدَن هذا المجتمع المسلم الذي وضع الله في يده زمام قيادة الإنسانية في حياتها الخالدة (المتطورة) في تفكيرها ووسائل عيشها.

ولا يمكن أن يوطَّد في النفوس العدلُ حتى يكون خلقًا للمجتمع يقوم به كل فرد على نفسه، وعلى غيره من أقرب ذوي القربى وأكثرهم مودة ومحبة، فينصف من نفسه، ومن والديه وكل من يمت إليه بصلة عن طريقهما، وحتى يكون العدل خلقًا للمجتمع يقوم في غير تكلف ولا تردد.

والقرآن الكريم -وهو دستور المجتمع المسلم- لا يقف في أسلوبه الذي يحض به على الاستمساك بالعدل عند سفح الحياة، ولكنه يتولج إلى مداخل الضمير الإنساني، ويأبى عليه أن يخضع في إقامة العدل لعاطفة تتملق الغني لغناه وسعة ثروته من المال، أو يتملق عاطفة الرحمة، فيرحم الفقير لفقره، فيلوي عنه عنق العدل حتى لا يرى ما يقع منه من ظلم وتحيف على الحق.

والقرآن بذلك لا يرضى للمجتمع المسلم أن يحمله تعزز الغني بثرائه وغناه على أن لا يقام معه العدل، ويظلم له الفقير، ولا يرضى لهذا المجتمع المسلم أن تحمله الرحمة للفقير، فيحابي بظلم الغني لأجله.

ولا يرضى القرآن الحكيم لمجتمعه المسلم وقد شرّفه الله فوضع في يده زمام قيادة الإنسانية أن يميل مع الهوى ويخضع للعواطف فيحيد عن العدل ليًا بالحق وإعراضًا عن النّصفة، لأن الله -تعالى- الذي شرّف هذا المجتمع بخيريته وإخراجه للناس قائدًا للحياة بهذه الخيرية وحمَّله أمانة العدل الاجتماعي -خبيرٌ بما يكون منهم من إعراض عن الحق لو أعرضوا عنه محاباة لقرابة أو صداقة أو نكصوا عن إقامة معالمه والجهر به انخداعًا بفقر الفقير والرحمة له، فيجازيهم بما يعلم مما انطوت عليه صدورهم.

يقول الطبري فيما يرويه عن قتادة: إن الله -تعالى- رضي العدل لنفسه، وهو ميزان الله في الأرض، به يرد من الشديد على الضعيف، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على المحق، وبالعدل يصدَّق الصادق، ويكذّب الكاذب، ويرد المعتدي ويرنّخ -أي يذل- وبالعدل يصلح الناس.

وقد جاءت أخت هذه الآية في نسب أسلوبها وألفاظها لتكمل صورة إقامة العدل على أتم وجوهه لتقرر أن موازين العدل يجب أن يتساوى فيها المحب والمبغض، والقريب والبعيد، والصديق

والعـدو فقالـت : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ (المائدة : ٨) فصورة الخطاب الكينوني هنا (كونـوا) الذي يجعل من العدل طبيعة في خلائق المجتمع المسـلم الذي نيط به قيادة الإنسـانية، هي صورته هنـاك لأن العدل أمانة هذا المجتمع المسلم العظمى التي حملها ليؤديها إلى الناس في حياتهم.

بَيْـد أن الأمر اختلف فـي الآيتين اختلافًا جمـع متفرق مواطن العـدل باعتباره أصلًا من أصول الرسـالة الخاتمة الذي يعم الحياة من جميع جوانبها، ففي الآية الأولى وجّه الأمر للمجتمع المسـلم بأشـرف أوصافـه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إلى أن يكـون قوّامًا بالعـدل ولـو كان في ذلك مراغمـة منازع الحب والـود والقربى، وفـي هذه الآية الثانيـة وجّه الأمر للمجتمع بعنوانه المشـرف إلى أن يكـون قوّامًـا بالعدل ولو كان في ذلـك مراغمة جميع عواطف البغض والعداوة.

وملتقـى الآيتيـن الكريمتيـن فـي توجيـه المجتمع المسـلم توجيهًـا صارمًـا لا هوادة فيه إلى أن يكون نهّاضًـا بالعدل قائمًا به بين الناس لتسـتقيم له قيادته للإنسـانية، وليخلص له التوجه إلى الله فـي إخـلاص العبودية له وحده، لا تحملـه محبة مهما عظمت أو بغض مهما اشـتد علـى الإعراض عن إقامة العـدل إحقاقًا للحق وإنصافًا للمظلوم ونصرًا للضعيف.

وقد كان هذا المنهج القيادي أول عهد أعطته أول خلافة لرسول الله ﷺ في المجتمع المسلم القائد للحياة تبيانًا لمنزلة العدل في قيادة الناس لإصلاحهم، ذلك هو قول الصدّيق أبي بكر -رضي الله عنه- في أول خطبة خطبها عقب بيعته بالخلافة الراشدة فقال -رضي الله عنه-: «إني وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، ألا وإن القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له».

منهج العدل في قيادة الإنسانية لا يعرف الفوارق بين الناس:

وهذا المنهج الأقوم في وجوب إقامة العدل بين الناس يعم الناس جميعًا، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، ولا بين قويِّهم وضعيفهم، ولا بين عالمهم وجاهلهم، ولا بين راعيهم ومرعيِّهم، ولا بين حاكمهم ومحكومهم، ولا بين أميرهم ومأمورهم، ولا بين صالحهم وفاسقهم، بل ولا بين مؤمنهم وكافرهم، لأنه منهج يعطي لقيادة المجتمع المسلم للإنسانية سلطانًا يرد به غويّها إلى الرشد، ومنحرفها عن مزالق الانحراف، وشاردها إلى الجادة، ليستقيم له طريق العيش الكريم، ويأخذ بيد ضعيفها حتى يمكنه من السير مع ركب الحياة، ويريش مُمْلقها ليعمل وينهض(٤)، ويكف يَدَ سفهائها عن الإِسراف في أموالهم، ويعلم جاهلها،

---

(٤) يريش المُمْلِق: يُكسب الفقير (المجلة).

ويفتح طرائق البحث الفكري أمام مفكِّريها، يتبنى بما مكَّنه الله في الأرض من أسباب مادية وروحية نظرياتهم في بحوثهم وأفكارهم، فيتيح لها أن ترى النور، وتبرز إلى الوجود حقائق تفتح أمام المجتمع المسلم آفاق التحكم في الطبيعة وآثارها، وتكشف له عن أسرار الكون في عناصره المادية والروحية، ليزداد إيمانًا مع إيمانه، ويأخذ مكانه في الحياة عالمًا ومعلِّمًا، ورائدًا قائدًا، يبتكر ويبدع، ويعمل ويصنع، ويستقل باستخراج كنوز أوطانه المخبوءة في سمائها وأرضها، ويحميها أن تكون نهبة للناهبين، ليحقق للإنسانية في قيادته لها أبوته الرحيمة المشفقة العالمة المعلمة.

يقول الإمام الرازي في تفسيره: اعلم أن التكاليف وإن كثرت إلا أنها محصورة في نوعين: التعظيم لأمر الله ـ تعالى ـ، والشفقة على خلق الله، فقوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ﴾ إشارة إلى النوع الأول، وهو التعظيم لأمر الله، ومعنى القيام لله هو أن يقوم لله بالحق في كل ما يلزمه القيام به من إظهار العبودية وتعظيم الربوبية.

وقوله: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله ومعناه: لا تحاب في شهادتك أهل ودِّك وقرابتك، ولا تمنع شهادتك أعداءك وأضدادك.

ثم يقول الرازي: وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ أي لا يحملنَّكم بغض قوم على ألا تعدلوا

فيهـم، والآيـة عامة، والمعنـى: ولا يحملنكم بغض قـوم على أن تجوروا عليهم وتجاوزوا الحد فيهم، بل اعدلوا فيهم وإن أسـاءوا إليكـم، وأحسـنوا إليهم وإن بالغـوا في إيحاشـكم، فهذا خطاب عـام، ومعناه: أمـر الله -تعالى- جميع الخلق بـأن لا يعاملوا أحدًا إلا على سبيل العدل والإنصاف، وترك الميل والظلم والاعتساف.

ويقـول القرطبي: ودلّت الآية على أن كفـر الكافر لا يمنع من العـدل معه، وإن المثلة بهم غير جائزة وإن قتلوا نسـاءنا وأطفالنا وغمونـا بذلـك، فليس لنـا أن نقتلهـم بمثله قصـدًا لإيصال الغم والحزن إليهم.

ومن ثم كانت تربية المجتمع المسلم وإعداده لقيادة الإنسانية بخصائصه التي احتواها منهجه التربوي حفيّة أشد الحفاوة بشرعة العدل، فتعـددت آياتها ونصوصها، وكثرت الوصية بها، وجاءت فـي مواضع من القرآن العظيم، تدل كثرتها على شـدة العناية بها لأنها ميزان الحكم على نهج قيادة الإنسانية في صلاحيته لتحقيق ما تصبو إليه الإنسانية المهذبة من تقدم ورقي.

هـدف الرسـالة هو الـذي رسـم منهج تركيـب المجتمع المسلم في قيادته للإنسانية:

وإذا كان هـذا هـو هدف رسـالة محمـد ﷺ التي ختـم الله بها الرسـالات الإلهية، فكانت خالدة خلـود الحياة، وكانت هذه هي مكانة المجتمع المسـلم ومنزلته من تحقيـق هذا الهدف الخطير

العظيم -كان من الواجب أن يكون تركيب المجتمع المسلم متساوقًا مع مكانته الاجتماعية، ومتمشيًا مع منزلته التكليفية في تحقيق هدف الرسالة الخاتمة الخالدة، ليجعل من ذرائع تحقيق هذا الهدف ووسائله عملا إيجابيًا في واقع حياة الإنسانية التي وحّدها الله في نشأتها بقدرته وإبداعه، وبعث فيها رسولًا فوحّدها في عقيدتها التوحيدية وحياتها الاجتماعية، وقد ختم الله -تعالى- به الرسالات الإلهية، فكانت رسالته جامعة في أصولها لرسالات الرسل من قبله، وكانت كاملة التشريع في إعطاء الحوادث المتجددة أحكامها بما اشتملت عليه من قواعد تحمل في طياتها تحقيق مصالح العباد في إطار العدل الاجتماعي.

وقد تم توحيد الإنسانية إيمانيًا بعد إشعارها بتوحيد النشأة قبل الهجرة إلى المدينة حيث اكتمل في هذا التوحيد الإيماني تركيب المجتمع المسلم اكتمالًا لا يحتاج فيه إلى مزيد، لأن المرحلة المكية التي قضتها الرسالة في مكة منذ إشراق شمسها حتى هاجرت مع حُمَاتها إلى مستقرها بالمدينة المنورة كانت كلها لتحقيق هذا التوحيد الإيماني، وتثبيت دعائمه، وتوطيد أسسه على ركائز مدركات العقل، ومناهج العلم والمعرفة.

وقد نزلت في هذه المرحلة سور وآيات تبيان العقيدة التوحيدية، بما يتبعها من يوم الجزاء وما يقع فيه، وحديث الأنبياء والرسل وموقف أقوامهم من رسالاتهم، وموقفهم من أقوامهم، وما بذلوا من أنفسهم وحياتهم، وما كان من عواقب ذلك من نصر للحق

الـذي جاء به الرسـل، وما كان معهم من حِجَـاج عقلي، وقد أربى ذلك على أكثر من ثمانين سـورة بما لم يدع مجالًا لشبهة إلا ردَّها وأبطلهـا، ولا أبطولة إلا مزّق أديمها ونسـفها نسـفًا، ولا أكذوبة إلا بهرجهـا وفنّدها، ولا فرية إلا زيّفها، ولا عنادٍ إلا أذله، ولا عتوٍ إلا أركسـه، ولا اسـتكبار إلا أخنعه، ولا تعنـتٍ إلا أماط اللثام عن فجـوره، ولا جحود إلا نكّسـه، ولا مماراة بالباطل إلا كشـف عن عوارها.

ولمـا ضاقت علـى أحلاس(٥) الشـرك وعبيـد الوثنيـة المادية الملحدة الحيل، واستنفدوا كل وسائل الإعنات والتعذيب والقسوة والإيـذاء قـولًا وعملًا، ولـم تترك لهم الرسـالة الخاتمـة الخالدة منفـذًا ينفذون منه إلى النيـل منها بمجادلتهم الباطلة ومحاجّتهم الكسـيحة، بعد أن شـكت أيديهم من طول ما حملت من سـياط الجبـروت، وجنـادل التعذيـب والافتنـان في صب فـوادح البلاء على طلائع الإيمان من السـابقين الأولين، وضاقت على المؤمنين الأرض بما رحبت، ولم يجدوا لهم متنفّسًا في أوطانهم بين أهلهم وعشـيرتهم لتبليغ رسـالة الله، ونشـر دعوة نبيهم ﷺ التي آمنوا بهـا إيمانًا امتزج بأرواحهم ودمائهم وإحساسـاتهم ومشـاعرهم، خرجوا مهاجرين إلى إخوان كانت لهم بالأمس القريب صولة على هـؤلاء الطغاة من عبيد الوثنية في عقر دارهم، أرعبت قلوبهم رعبًا

(٥) أحـلاس جمع حلس، والحلس ما يُجلس عليه ويسـتعار للملازمة فيقال فلان حلس كذا بمعنى يلازم كذا (المجلة).

التفَّت منه سوقهم بعضها على بعض هلعًا وجزعًا، وفرقًا وفزعًا إذْ قد بلغهم أن البهاليل من أبناء يثرب أوسهم وخزرجهم قد بايعوا رسول الله ﷺ على أن يكونوا حربًا لمن حاربه وسلمًا لمن سالمه، كائنًا من كان من أهل الأرض، وهم بقية السيف الذين نهدوا بين صليل السيوف ووقع الأسنة في الصدور، وكانوا يرهبونهم أشد الرهبة.

وهاجر رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن على هجرة أصحابه، واستقر به وبهم المقام في المدينة، ونظر ﷺ في مجتمع المدينة فرأى أخلاطًا من الجماعات المتنافرة أشد التنافر، يتألف منها هذا المجتمع المدني من يهود ومشركين ومتربِّصين، وكان المجتمع المسلم قد أصبح عنصرًا أساسيًا في عناصر المجتمع المدني، وكان لابد من استصلاح هذه الأخلاط المتنافرة التي يتركب منها المجتمع المدني، فرأى رسول الله ﷺ من حكمة التدبير وحسن السياسة ألا يبدِّد جهوده الأولى في استصلاح هذه الأخلاط شديدة الاختلاف والتنافرالتي يتركب منها المجتمع المدني، لأن ما في عناصر هذا المجتمع من تنافر واختلاف في وسائل الحياة وتحقيق أهدافها سيكون من أصعب المعوقات في الاستصلاح، وقد يكون مبعثًا لنشر الفتن مما قد يضطر المجتمع المسلم الجديد إلى خوض بعض وقائع المجتمع المدني، نظرًا إلى ما كان بين الأنصار واليهود من روابط اجتماعية قبل أن يشرف الأنصار بالإيمان

بالرسالة الخاتمة الخالدة، فيشغل ذلك المجتمع المسلم في تركيبه الجديد عن العمل لتحقيق أهدافه وغاياته في نشر الدعوة وتبليغ الرسالة، وقد تكون وسائل هذا المجتمع المسلم الجديد لخوض بعض هذه الأحداث والوقائع أقل وأضعف من وسائل غيره من عناصر المجتمع المدني مما يغري به سائر أخلاط المجتمع المدني، وهم جميعًا له عدو فيتألبون عليه، وينسون ما بينهم من عداوات خاصّة، وتنافر في الوسائل، وتنافر في الأهداف، وينسون التنافس في تحقيق رغائبهم الشخصية، فتجمعهم عداوتهم لهذا المجتمع المسلم الناشئ ليكونوا حربًا عليه، للقضاء على كيانه، لأنهم يخشونه ويخشون منه على مستقبلهم في حياتهم المادية التي يتزاحمون عليها.

وهذا مما يعوّق الدعوة، وقد يوقف سير الرسالة، وسيرُ الرسالة هو المهمة العظمى التي من أجلها هاجر رسول الله ﷺ، وأصحابه، تاركين وراءهم ديارهم وأموالهم وعشائرهم ليواصل ﷺ مع أصحابه نشر الدعوة وتبليغ الرسالة، ويكوِّن مجتمعًا مسلمًا جديدًا موحَّد النشأة والعقيدة والعوامل الاجتماعية، ليحمل هذا المجتمع الجديد على كاهله عبء حماية الدعوة في نشرها من كل ما يعوّقها عن المُضيّ قُدُمًا في سيرها، تبليغًا للرسالة والدفاع عنها ضد كل من يحاول عرقلتها والوقوف في طريقها وهي تسير مشرقة هادية، تفتح القلوب المقفلة بأغاليق

الظلم المرعب، وتطلق العقول المغلَّلة بأغلال التقليد البليد الموروث من أغلالها، محررة منطلقة في أجواز الكون، تفكر وتهتدي وتهدي وتعْلَم وتعلمٍّ، وتدل على الطريق الذي يرقى بالحضارة الإنسانية إلى آفاق سعادة الحياة.

ومن ثَمّ كانت البداءة بتحقيق الوحدة الاجتماعية بين غصني دوحة المجتمع المسلم الجديد في مستقره ومنطلقه في أرجاء الحياة داعيًا إلى الله وإلى توحيده، وهاديًا إلى الحق والنور والخير، وهي اللبنة الثالثة في أساس البناء المتكامل لهذا المجتمع المسلم الجديد، بعد وحدتي النشأة والإيمان وحدة النشأة الميلادية التي أُهدرت آثارها بين أبناء الإنسانية، وحلَّت محلَّها الفرقة الجنسية، وفرقة اللون، وفرقة اللغة، وفرقة العلم والجهل، والغنى والفقر.

وجاءت الرسالة الخاتمة الخالدة لتعيد إلى وحدة النشأة حقيقتها، وتذكر الناس بآثارها، ولتؤسس وحدة الإيمان لتكون عنصرًا من عناصر التماسك في المجتمع المسلم لا يفصمه جنس ولا لون، ولا لغة، ولا تفاوت مادي في وسائل الحياة.

وحدة النشأة ووحدة العقيدة كانتا معتصم المجتمع المسلم:

وهاتان الوحدتان -وحدة النشأة التي أحيتها الرسالة الخاتمة في تشريعاتها، ووحدة الإيمان التي قامت على دعائمها أسس

الرسـالة- قد كانتا حزام الأمان من التفسـخ والتفكك والانحلال لطلائـع المجتمع المسـلم، وهـو يمر في غمـرات محن الأزمات وشـدائدها معتصمًـا بعراهما في مرحلة الكفـاح الصبور، إذ كان يلقـى ما يلقى من فجـور الطغيان الوثني، وفتون القسـوة الفاجرة على أيدي عتاة المشـركين، قبل أن تفتح له أبواب الأمل الفسـيح بالهجـرة إلى البلـد الطيب ومن فيه من أصفيـاء المؤمنين، أنصار الله، وأنصـار نبيِّه ﷺ وأنصار دعوته، وكتائـب الجهاد دفاعًا عن رسالته وإعلاء كلمتها.

لهـذا عمـد رسـول الله ﷺ إلى أول عمـل يقوم بـه أول مَقْدمه المدينـة المنـوّرة التي أصبحت مسـتقر الدعوة إلـى الله، ومنطلق تبليـغ الرسـالة، ليبنـي مجتمعه المسـلم الجديد على أسـس من القـوة المادية والفكريـة والاجتماعية بعد أن ثبَّـت قدمه في إطار الوحـدة الإيمانيـة، فكان ذلـك العمل المجيد هو عقـد المؤاخاة بيـن غصني دوحـة المجتمع المسـلم من المهاجريـن والأنصار، لتصحيح تركيبه الاجتماعي، بمـزج عناصره في وحدة اجتماعية تزيل جميع الفوارق الماديّة بين أفراده وجماعاته بوسـائل التربية الإيمانية التي ترتكز علـى الحب وعلى يقظة الضمير، وتحريكه ليصبـح هو الرقيب على هذه الوحدة الاجتماعية والحفاظ عليها، دون اللجوء إلى سطوة القانون، وقهر العقوبات.

الوحدة الاجتماعية كانت دعامة تصحيح المجتمع المسلم:

وتمَّت هذه المؤاخاة الاجتماعية على أساس من الحب الذي أنشأته الوحدة الإيمانية في نفس كل مؤمن، وعلى النهج الذي شرعه الله -تعالى- في تربية هذا المجتمع المسلم في سلوكه الخلقي ونظامه الاجتماعي، وهو يسير حاملًا لواء تبليغ الرسالة إلى الحياة ونشر دعوة الحق والهدى والعلم بين الناس.

وبهذه المؤاخاة الاجتماعية في الارتفاق والمناصرة، والتعاون والتساعد والتعاضد، والحب في الله ولله الذي جعله النبي ﷺ أساسًا لهذه المؤاخاة بقوله لأصحابه من المهاجرين والأنصار: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين» تمَّ تصحيح تركيب المجتمع المسلم.

والتآخي في الله هو الثمرة الجَنِيّة العملية للحب في الله الذي اتخذته الوحدة الإيمانية عنوانا على وجودها في واقع حياة المجتمع المسلم لقوله ﷺ في حديث البخاري: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وتصحيح تركيب المجتمع المسلم على أساس الحب في الله، والله جعل من هذا المجتمع يدًا واحدة، وكلمة واحدة، وعملًا واحدًا، وذمة واحدة، ودمًا واحدًا، وفكرًا واحدًا، ونظامًا واحدًا في سياسته ووسائل حياته وتربيته وسلوكه وأخلاقياته، كما أشار

إلى ذلك رسـول الله ﷺ في الحديث الصحيح الثابت «المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم».

وهذه الوحدة الاجتماعية كانـت هي الهدف من عقد المؤاخاة بين المؤمنين، لتجعل من المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي عنصرًا بشـريًا إيمانيًا موحَّد الغاية والوسيلة أمام أخلاط المجتمع المدنـي المتنافـر فـي أهدافه ووسـائله وغاياته، ليسـدّ على هذه الأخـلاط المتنافرة فـي مقوّمات حياتها -وهي نمـوذج لكثير من المجتمعـات التي سـيواجهها المجتمع المسـلم في طريق دعوته إلـى الله، وتبليغ رسـالته ونشـر هدايته، وشـرائع أحكامه- منافذ الفسـاد والإفساد، والفتن، والشـرور، والكيد، التي يحاولون بها تفريق صف المجتمع المسلم، وتشتيت كلمته، وتفكيك وحدته التي هي مصدر قوته ودعامة حياته.

وقـد حفـظ لنا تاريخ نضال المجتمع المسـلم مـع أعدائه بعد تحقيـق وحدته الاجتماعيـة وهو ما يزال في دور نشـأته وتكوينه كثيرًا من المحاولات الإفسـادية التـي كان أولئك الأعداء يدبرون مكايدها، ليشعلوا بها نيران الفتن بين صفوف المجتمع المسلم، ليفرِّقوا جمعه ويفكِّكوا وحدته، ولكن هذه المحاولات الإفسادية كانت تبوء بالخسران، لأنها كانت تصطدم بقوة تماسك المجتمع المسـلم في تركيبه الإيماني والاجتماعي، فيذيبها في تلك القوة التـي جعلت من تركيبه الاجتماعي وحدة مدمجة العناصر دمجًا لا يقبل التفريق، ولا تنفصم عراه، ولا تحل روابطه.

روى ابــن إســحاق وغيره أن شــاس بن قيس اليهــودي – وكان شيخًا عظيم الكفر، شديد الضِّغْن على المسلمين، شديد الحسد لهــم – مــرّ علــى نفر مــن أصحــاب رســول الله ﷺ – مــن الأوس والخــزرج – في مجلس قد جمعهم، يتحدّثــون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم في الإســلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلة بهذه البلاد، لا، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار.

فأمــر فتــى شــابًا من يهــود كان معهم، فقــال له: اعمــد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعَاث، وما كان قبله، وأنشــدهم بعض مــا كانــوا تقاولوا فيه من الأشــعار، ففعل الفتى فتكلَّــم القوم عند ذلــك، وتنازعــوا وتفاخروا حتى تواثــب رجلان مــن الحيَّين على الركــب، فتقــاولا فقال أحدهمــا لصاحبه: إن شــئتم رددناها الآن جذعة. فغضب الفريقان جميعًا، وقالوا قد فعلنا، موعدكم الظاهر -أي الحرةّ- السلاح السلاح، فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يا معشر المسلمين، الله، الله، أَبدعْوَى الجاهلية، وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم».

فعــرف القوم أنها نزعة من الشــيطان وكيد من عدوهم، فبكوا وعانــق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع

رسـول الله ﷺ سـامعين مطيعين، وقد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس وأضرابه من فجرة اليهود.

وهـذه الحادثة تحمل في طياتها ما كانـت تنطوي عليه صدور أعـداء الله، وأعـداء رسـول الله ﷺ -وهم أكثر أخـلاط المجتمع المدني عـددًا وعدّة، وأعظمهم خيانة وغدرًا- من الحقد الأسـود وسـوء الضغـن على وحدة صـف المجتمـع المسـلم، وتُصوِّر ما امتلأت به قلوبهم من الحسد والغل، وخبث المكر، ودناءة الكيد لهذا المجتمع المسلم.

وتحمـل فـي ثناياها قوة أثـر الوحدة الإيمانية فـي قلوب أفراد وجماعـات المجتمع المسـلم وتصور عمل هـذه القوة في تطهير النفـوس المؤمنة من أوضار الضغائـن الوثنية الجاهلية، التي توهّم أعداء الوحدة الإيمانية أن ترسـبها في حنايا النفوس ما يزال قائمًا فـي نفـوس المؤمنين، فخيّـب الله توهماتهـم، وأراهـم ما يحرق أكبادهم من الغيظ وسوء عواقبهم في مقاصدهم السيئة.

وتحمـل فـي غضونها ما كان من سـرعة الأوبـة والندم على ما كان من نزغات الشـيطان والفيئة إلى ظلال الإيمان بعد أن كادت نيـران الفتنة الخبيثة تحرق ألفتهم الأخوية التي منّ الله عليهم بها بعد ما كان بينهم من عداوات عاصفة، أنقذهم الله منها برسول الله ﷺ وهو بين أظهرهم، وبما اسـتقر في أفئدتهم من رسـوخ اليقين وصادق الإيمان.

إذ إنهم لم يكد يصل إليهم رسول الله ﷺ - بعد أن بلغه ما كان من مواعدتهم على القتال، فخطب فيهم مذكِّرًا لهم بنعم الله عليهم في وجوده ﷺ بين أظهرهم، وأن الله هداهم به إلى الإسلام والإيمان، فأكرمهم بهما، وأعزهم بعزهما واستنقذهم من ظلمات الكفر، وقطع عنهم أمر الجاهلية، وألّف بين قلوبهم - حتى عرفوا أن ما كان منهم من دعوة الجاهلية والعودة إلى ضغائن الكفر إنما كان فورة غضب شيطانية، ونزعة حسد يهودية، وشرارة حقد طيرها بينهم خبيث يهودي، أراد أن يكيد لوحدتهم، فندموا ندمًا أبكاهم، وعانق بعضهم بعضًا، وعادوا مع رسول الله ﷺ إلى منازلهم إخوانًا متحابين في ظل وحدتهم الإيمانية وأخوتهم الاجتماعية سامعين مطيعين، فرحين بما جدّد الله لهم من نعمة إطفاء كيد عدوهم، الذي باء بغيظه وهو يرى وحدة الصف في المجتمع المسلم تزداد قوة واستمساكًا وألفة ومحبة.

وهذا حادث آخر يمثل لونًا خبيثًا من أحط المحاولات الإفسادية، لإشعال نار الفتنة بين صف المجتمع المسلم لتفريقه وتمزيق وحدته الاجتماعية، وتفريق كلمته بعد تصحيح تركيبه الاجتماعي بعقد المؤاخاة بين غصني دَوْحة هذا المجتمع من المهاجرين والأنصار، لتكون هذه المؤاخاة الاجتماعية القائمة على الحب في الله ولله قوة روحية ومادية وفكرية، تمثل الإرادة الاجتماعية لهذا المجتمع المسلم على مدى سير الرسالة الخالدة في قوة متماسكة الوشائج التي لا تنفصم عراها، ما دام هذا المجتمع

قائمًا بموجبات هذه المؤاخاة التي عقدت لتكون عنصرًا أساسيًا في تركيب عناصر المجتمع المسلم ما بقي هذا المجتمع حاملًا لواء الدعوة إلى الله -تعالى- بتوحيده، وإخلاص العبودية لجلاله، وما دام هذا المجتمع ممسكًا بيمينه كتاب الله -تعالى- القرآن الحكيم دستورًا أبديًا لحياته، وما دام هذا المجتمع رافعًا راية تبليغ الرسالة التي ختم الله بها رسالات السماء وشرائعها لينشر في أرجاء الأرض أحكامها وآدابها ونظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة على دعائم العدل والحق بين أبناء الإنسانية أينما كانوا في ملك الله -تعالى- .

إن هذه المؤاخاة العاصمة للمجتمع المسلم من التفرق والشتات، الرابطة لعناصره بروابط المحبة والإخاء، كانت شجًا في حلاقيم أعداء هذا المجتمع من اليهود والمنافقين ونفايات الوثنية وبقايا أشلاء الشرك الغبيّ، وغصة شرقت بها صدورهم لم تنشأ لتكون فقط عنصرًا ماديًا رخيصًا في حياة المجتمع المسلم، يضمن لقمة العيش لطلائع الإيمان ـ بالرسالة الخاتمة الخالدة ـ الذين خرجوا من ديارهم، وتركوا وراء ظهورهم أموالهم وأبناءهم وعشائرهم مهاجرين بعقيدتهم الإيمانية إلى الله ورسوله، ولا لتكون وسيلة موارثة بين المهاجرين والأنصار، لأن هذه المقاصد المادية الدانية الدنيا لم تكن في نظر النبي ﷺ الذي أرسل ليقيم دينًا، ويبني أمة، وينشر دعوة تجمع الإنسانية كلها في إطار الأخوة النشئية والوحدة الإيمانية والمؤاخاة الاجتماعية في ظل ظليل

مـن عقيدة التوحيد -لتسـتأهل أن تكون هدفًـا لتصحيح تركيب المجتمع المسـلم فـي حياته المسـتقبلة الأبدية، هـذا المجتمع الذي جعل الله في يده زمام قيادة الإنسانية، هداية وعلمًا، وسياسة ونظامًا اجتماعيًا وأوضاعًا اقتصادية، وتربية سـلوكية، ومعاشـرة خلقيـة، وجعله قـدوة يُقْتـدى به في تطلعاتـه إلى الحياة وأسـوة للأجيال البشرية المتوالية الورود على طريق الإيمان.

وهذا كله مما أوغر صدور أعداء المجتمع المسـلم الذين أكل الحقـد قلوبهـم وأحرق أكبادهـم، وهم يرونـه مجتمعًا يعيش في وحـدة مدمجة العناصر، يقوم وينهض مُجْتَمِع الهدف والوسـيلة، ويقعـد ويدبِّـر موحَّـد الـرأي والفكـرة، فـكان أولئـك الأعـداء يتربصـون بـه الدوائر، ليوقعوا فـي صفه الموحَّد المتماسـك في عناصـر تركيبـه الاجتماعي الفرقـة والتفكك حتـى يتمكنوا من توهين قوته، وإضعاف شـوكته، وقهر عزتـه، ولكن الله -تعالى- الذي أخرج هذا المجتمع المسـلم من ضميـر الغيب ليكون خير مجتمع في حياة الإنسـانية، يقودها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر ووحـدة الإيمان -كان لهـؤلاء الأعـداء بالمرصاد، كلما تآمروا ودبروا المكايد لهذا المجتمع المسـلم ردَّها إلى نحورهم، وأذلَّ تعززهـم، وبدَّد غرورهم، وأبطل كيدهـم وتدبيرهم، وحاق بهم سوء ما مكروا ودبروا، فأبلسوا حيارى في طغيانهم يعمهون.

وهذا الحـادث الذي قصدنا أن نورد قصته شـاهدًا على ما كان يطحـن أفئدة أعداء المجتمع المسـلم من الغل والحقد والحسـد

صورةٌ حية صادقة تمثل تفاهة تدبيرهم، وتصور قوة تركيب المجتمع المسلم القاهرة الغلّابة، هذه القوة التي كانت أعظم آثار المؤاخاة الاجتماعية بين عناصر هذا المجتمع، لأن المجتمع المسلم جعل من هذه المؤاخاة عنصر بقائه في الحياة قويًا متماسكًا، لا تغمز له قناة، ولا يرد له بأس، ولا تقف في مواجهته هلاهيل الأخلاط المتنافرة الممزقة في داخلها الهزيلة بأهدافها.

وإجمال الحادث في قصته كما أوردها ثقات المؤلفين في السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون له، فخرج إليهم في كتائب المجاهدين من المهاجرين والأنصار حتى لقي جموعهم على ماءٍ لهم يقال له (المريسيع) وباسمه كانت تسمى هذه الغزوة في بعض رواياتها، واقتتل الجمعان وتزاحف الناس، فهزم الله بني المصطلق، ونصر نبيه وجنده.

خبث النفاق ولؤم طبعه يتمثلان في زعامة ابن أبي بن سلول:

وبينا رسول الله ﷺ على ماء المريسيع وردت واردة الناس، وكان مع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له جهجاه بن مسعود، يقود فرس عمر، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين،

فغضب رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم: غلام حَدَث، فقال عبد الله بن أبيّ: أقد فعلوها، أقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا؟ والله ما أعدّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: سمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم، فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، وعند رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، فقال: مُرْ عبّاد بن بشر فليقتله، فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ قال: لا، ولكن أذِّن بالرحيل» وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

ثم مشى الكذوب الرعديد عبدالله بن أبيّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلَّغه ما سمعه منه، فحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلمت به. وكان ابن أبي في قومه شريفًا معظّمًا، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل؛ حدبًا على ابن أبيّ ودفعًا عنه.

فلما استقل رسول الله ﷺ وسار بالناس لقيه أسيد بن الحضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه وقال: يا نبي الله، والله لقد رُحْتَ في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟» قال أُسَيد: أيُّ صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بن أبي». قال: وما قال؟ قال رسول الله ﷺ: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذلّ» قال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز.

ثم قال أسيد: ارفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوِّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكه.

الحكمة السياسية التي عالج بها رسول الله ﷺ هذا الحادث:

ثم مَتَنَ -أي سار سيرًا متواصلًا- رسولُ الله ﷺ بالناس يومهم ذلك، حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح، وصدْر يومهم ذلك حتى آذته الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبيّ.

وبلغ حديثُ ابن أبيّ ولده عبدالله -وكان من صالحي المسلمين- فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً

فمرني به فأنا أحمل لك رأسه، فوالله لقد علمتِ الخزرج ما كان من رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبيّ يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلًا مؤمنًا بكافر فأدخل النار.

فقال له رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته، ما بقي معنا» وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنِّفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلتهُ يوم قلت لي: اقتله لأرعدت له آنُفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته[٦]» قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

وفي قصة هذا الحادث -الذي بدأ بين المهاجرين والأنصار، وأراد رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول استغلاله على أبشع وأحط صور الخبث الكفور، والنفاق الجبان الكذوب- أمور من العبر وصور من دخائل النفوس، ينبغي التنبيه إليها، لأنها تصورِّ وضع المجتمع المسلم المتوافق بين أخلاط المجتمع المدني المتنافر، وتصور شدّة (الحساسية) التي تستحوذ على طوائف المجتمع المدني في تنافره واختلاف أهدافه ووسائله بالنسبة

(٦) آنُف جمع أنف والمراد من قوله (أرعدت له آنف) هاجت من أجله جموع (المجلة).

للمجتمع المسلم في توافق مقاصده وأهدافه، وقوة تماسكه روحيًا وماديًا، هذا التماسك الذي جعل من المجتمع المسلم قوة مادية مرهوبة الجانب، موحّدة الهدف والوسائل.

العبرة الأولى في هذا الحادث:

وأول ما ينبغي التنبيه إليه من هذه العبر أن هذا الحادث بدأ صغيرًا بين رجلين لم يكونا ممن يسمّون بين المجتمع المسلم بشهرة في فضل مرموق أو سداد في الرأي.

فالأول وهو جهجاه بن مسعود الغفاري كان أجيرًا لعمر بن الخطاب في هذه الغزوة وكان يقود فرسه إلى الماء، فهو في مكانته الاجتماعية تابع، وهو إذا عُدّ في تركيب المجتمع المسلم لا يأتي في أراعيلهم(٧)، وهو صاحب قصة عصا النبي ﷺ التي كان يخطب عليها، وتداولها الراشدون من بعده، ففي حديث ابن عمر أن جهجاهًا قام إلى عثمان وهو يخطب على منبر رسول الله ﷺ فأخذ عصا رسول الله ﷺ فوضعها على ركبته فكسرها، فنزل عثمان ودخل داره، ورمى الله جهجاهًا بالأكلة في ركبته، فلم يَحُل عليه الحول حتى مات.

وثاني الرجلين هو سنان بن وبر حليف بني عوف بن الخزرج الأنصاري، ولم يكن سنان بأفضل من صاحبه جهجاه، هذان

(٧) الأراعيل جمع رعيل والرعيل الجماعة من الرجال (المجلة).

الرجلان ازدحما على سـقي الماء فاقتتـلا ودعوا بدعوة الجاهلية، فقال جهجاه: يا معشر المهاجرين، وقال سنان: يا معشر الأنصار، ولم تذكر الرواية أن أحدًا من المهاجرين والأنصار رفع لهذه الدعوة الجاهلية رأسه، فماتت في قماطها(٨).

وتفاهة هذا الحادث في بدئه وعدم اسـتجابة أحد لدعوته دليل علـى صغـاره ومهانته، ولولا وثبة الشـيطان في إهـاب النفاق إلى مدرجته ليشعل به نيران الفتن لمضى مع الريح كما تمضى عفطة السخلة(٩).

فهو حادث لم يمسّ في بدائه تماسك عناصر المجتمع المسلم مـن قريـب أو بعيد، ولهذا لـم يحفل به هذا المجتمـع ولم يتركه يأخذ مكانًا من تركيبه الاجتماعي، بل أهمله إهمال من لا يسـمع ولا يبصر شيئًا.

العبرة الثانية في هذا الحادث:

وثاني الأمـور التي تلفت النظر، وتسـتحق التنبيه في الحادث -الذي بدأ تافهًا ثم اسـتضخم حتى حمَّل النبي ﷺ وأصحابه عنتًا ومشقة في سبيل القضاء على آثاره الحالكة بظلام النفاق والحقد- مـا كان مـن رأس النفـاق عبد الله بن أُبيٍّ بن سـلول الـذي لم يكد

(٨) القماط: الخرقة تُلف على الصبي في المهد (المجلة).
(٩) السـخلة اسم لولد الغنم ساعة ولادته. والعفطة صوتٌ تخرجه العنز من أنفها وليس بالعطاس (المجلة).

يســمع صوت الجاهلية في دعوة جهجاه وسنان، يقول أولهما: يا معشر المهاجرين، ويقول الثاني: يا معشر الأنصار حتى أسرع إلى نفض ما يكنّه صدره من غلٍّ وحقد، وهو جالس بين رهط من قومه، فقــال لهم مؤنِّبًا متوعِّدًا ما قال من ســوء القــول، وفحش الكلمة، ممــا ينطوي على إغراء قومه وتحريضهــم لينخلعوا من مروءاتهم ومكارمهــم التي أثنــى الله بها عليهم في فواضلهــم التي بلغت من الســمو مبلغًــا أعجز الإنســانية أن تأتي بمثله فــي تاريخها القديم والحديث.

ولم يكتف هــذا العربيد رأس النفاق والمنافقين بذلك، ولكنه تمطّــى وتثــاءب، وتوهــم أن أباطيله تروج على العقــول المؤمنة، وقــال قولته الفاجرة الكذوب التي حكاها الله في ســورة من القرآن الحكيم ســميت باســم حزبه (المنافقين)، لتفضحه وتفضح كل مــن كان على شــاكلته في لــؤم الطبــع: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ (المنافقون: ٨).

وهنــا تثور حميــة الإيمان وقوة اليقين في قلــب القوي الأمين، فاروق الإســلام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فيقول لرســول الله ﷺ: مُــر عبّــاد بن بشــر فليقتله، ولكن سياســة الحكمة التي جعلها الله شعار رسول الله ﷺ ومنهجه في كشف الغمم المدلهمة

أبـت أن تسـتجيب إلـى حميّة عمـر -رضـي الله عنـه- ، وقال له ليرده إلى رزانة التفكير وسـداد الحكمـة ، ولينزع من قلبه خطرة التسـرع في خوض غمـرات المجهول في مسـتقبل الأمة : «كيف يـا عمر إذا تحدّث الناس أنّ محمدًا يقتل أصحابه» ومعنى ذلك أن الفتنة مجنّحة تحاول أن تختطف أمن المجتمع المسـلم واستقرار حياتـه لأن هذا العربيد رأس النفاق والمنافقين ، الكذوب المتنفّج يدّرع الجبن والتقيَّة في نفاقه ، ويخلط نفسـه بالمجتمع المسـلم خداعًا وغشًا ، فهو في نظر عامة الناس فرد من هذا المجتمع الذي يتداخل معه ، ويحضر محافله وغزواته ، فلو أن النبي ﷺ أمر بقتله لتحـدث الناس ، فقالوا : إن محمدًا يقتل أصحابه ، وحينئذ يشـغل المجتمع المسلم عن مهمته في الحياة ، وقد يؤدي ذلك إلى وقف عجلة سـير الرسالة ونشر الدعوة إلى الله ، وقد يؤثر هذا في حُدَثاء الإسـلام الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهـم ولـم تختمر العقيدة فـي أفئدتهـم ، مـن الذيـن لا يعلمون شـيئًا عن أخـلاط المجتمع المدني ، ويأخذون الأمـور بظواهرها ، ويحكمون عليها بما يرون ويسـمعون ، وفي هذا من الخطر المبدد للوحدة ما لا يعلم مداه إلا الله تعالى ، وهذا هو ما يرمي إلى تحقيقه أعداء المجتمع المسلم ، وهو ما تحاماه رسول الله ﷺ .

العبرة الثالثة في هذا الحادث:

ثـم أخـذ النبي ﷺ في تطبيـق منهجه العملي لحل مشـكلات الأحداث المفاجئة بما يضمن عدم مضاعفات آثارها الضارة، فقال لعمـر -رضي الله عنه- بعد أن وجّهه إلى الأناة في إبانها-: «ولكن آذَنُ بالرحيـل» وكان ذلك في سـاعة منكرة لـم يعهد في مثلها من النبـي ﷺ الرحيـل، وارتحـل الناس في هـذه السـاعة التي تعجَّل رسـول الله ﷺ الرحيل فيهـا، فأخذت الدهشـة مكانها في أنفس الصحابـة من المهاجرين والأنصار، وتهامـس من لم يكن قد علم شيئًا، وهم الأكثرون: لم هذا الرحيل في هذه الساعة؟

وعلـم رأس المنافقيـن أن قولته الخبيثة بلغت رسـول الله ﷺ، فمشـى إلى رسـول الله ﷺ يتنصل من قولته الخبيثة، ويحلف أنه ما قال الذي نقل إليه ولا تكلم به، وهو في تنصله وحلفه كذوب، وكان بعض قومه من الأنصار يسـمعون تنصله وحلفه أنه ما قال ما قيل عنه أنه قاله، فقالوا حدبًا عليه ودفعًا عنه محاولين تبرئته مما وقـع منه وهم لا يعلمـون، فقالوا: يا رسـول الله، لعل الغلام أوهم ولم يحفظ ما قال الرجل.

فلما اسـتقل رسول الله ﷺ لقيه أسـيد بن الحضير فحيّاه بتحية النبوة وسلّم عليه، وقال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة مـا كنت تروح فـي مثلها، فأخبره النبي ﷺ بما قال عبد الله بن أبي بن سلول ليكشف له عن سر هذا الرحيل في مثل هذه الساعة.

العبرة الرابعة في هذا الحادث:

وكان أسيد بن الحضير من سادة الأنصار وخيار الصحابة، فطلب من النبي ﷺ أن يرفق بابن أبيّ مبديًا عذر ضغنه وحقده، وسار رسول الله ﷺ بالناس سيرًا طويلًا شاقًا، ليشغلهم عن الحديث الذي كان بالأمس، وكان فيه من أمر ابن أبيّ ما كان، وآتت هذه السياسة الحكيمة أُكلها، ونسي الناس ما كان، ولم يكن لهم همّ إلا أن يأخذوا قسطًا من الراحة بعد هذا السير الطويل المتواصل، وماتت هذه الأمثولة في مهدها، ولم تنل من المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي منالًا. ومن الأمور التي تستحق التنبيه إليها في قصة هذا الحادث الخبيث موقف عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وطلبه من النبي ﷺ أن يأمر عبّاد بن بِشْر الأنصاري بقتل عبد الله بن أبي رأس النفاق، وعبّاد بن بشر أحد فتية الأنصار وشجعانهم وشعرائهم أصفياء الإيمان، ولكن النبي ﷺ أعرض عن هذا الرأي العمري، ورأى أن قتل ابن أُبيّ يفتح أبوابًا للفتنة، ويشعل نارها، وهو ﷺ يريد القضاء على الحادث، بل القضاء على الحديث فيه، حفاظًا على المجتمع المسلم أن يدخل في دوّامة من القيل والقال، وربما كان في المجتمع من لا يُؤْمَن تَزَيُده في الحديث، ومن تدفعه بقايا الحمية الجاهلية إلى كلمات توغر الصدور، ويشتد الأمر في صف المجتمع المسلم على غرار ما كان في حادث اليهودي الخبيث شاس بن قيس، ولولا تدارك النبي ﷺ للموقف لأدّى إلى تفاقم النزاع والوصول به إلى ما لا تحمد عقباه.

وعمــر –رضــي الله عنه– جرى في رأيه عــرض قتل ابن أبي على سـجيته في قـوة الإيمان وحميته فـي أخذ الأمور بالحـزم الذي لا هـوادة فيه، كما ذكـرت الروايات عنه في موقفه من أسـرى بدر، وموقفــه من حاطب بن أبــي بلتعة في الكتاب الــذي كتبه إلى أهل مكة يحذرهم فيه سطوة رسول الله ﷺ بهم.

بيــد أن عمر لم يقل في قصة ابن أبــيّ دعني أضرب عنقه، كما قال في قصة حاطب، ولكنه دلّ النبي ﷺ على فتى من الأنصار هو عبّاد بن بِشْر لو أشار عليه النبي ﷺ أن يقتل ابن أبي ما تردد لحظة واحدة، وعباد بن بشــر كان أحد خمســة من فدائيي الأنصار الذين قتلوا كعب بن الأشرف وطهّروا الأرض من فجوره ورجسه.

ورأي عمر في أن يأمر النبي ﷺ عبّاد بن بشر بقتل ابن أبيّ لفتة سياســيةٌ من عمريات عمر في حياتــه الإيمانية وقوة يقينه ومضاء عزيمتــه –رضي الله عنه–؛ لأن عمر وهو أحد ســادات المهاجرين الأكابــر المرموق بالنظر من جميع المســلمين يعــرف أن ابن أبي كان شــريفًا في قومه، معظّمًا عندهم، وفيهم من كان حّدِبًا عليه، مدافعًــا عنــه، ولعل هــؤلاء وهم من خلصــاء المؤمنين، الراســخة أقدامهم في ســاحة العقيدة التوحيدية كانوا يطمعون في إيمان ابن أبــي نظرًا لمكانته في قومه، أو أنهم كانــوا يظنونه مؤمنًا لما كان يظهــر به مــن مداخلة المجتمع المســلم، فلــو أن عمر –رضي الله عنــه– عرض على النبي ﷺ أن يأذن له في قتله مباشــرة لعظم هذا

الموقـف على الأنصار، وربما أدَّى ذلك إلـى هزة في الموقف بين المهاجرين والأنصار، وحوكٍ في الصدور(١٠)، ولهذا اتّقى عمر أن يتولى ذلك بنفسه.

العبرة الخامسة في هذا الحادث:

ومن أبلغ الأمور التي تستحق لفت النظر في قصة هذا الحادث، وينبغـي التنبيـه إليها هذا الموقف الإيماني النبيل من عبد الله بن عبد الله بن أبي، وكان مسلمًا مؤمنًا، مخلصًا في إيمانه، عداده في صلحاء الصحابة -رضي الله عنهم-.

فقد بلغه ما كان من أبيه من قولة فاجرة خبيثة، وخشي أن يأمر رسـول الله ﷺ بقتلـه فيؤثر ذلك في نفسـه، فأتى رسـول الله ﷺ وحدّثـه بما في نفسـه، وقال له: يا رسـول الله، بلغنـي أنك تريد قتـل عبدالله بن أبي فيمـا بلغك عنه، فإن كنت فاعـلًا فمرني فأنا أحمل لك رأسـه، إني أخشـى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلًا مؤمنًا بكافر، فأدخل النار.

فتلطـف به النبي ﷺ وهدّأ من روعه، وأذهب هواجسـه، وقال له: «بل نترفّق به ونحسـن صحبته ما بقي معنـا» وطابـت نفـس

(١٠) يقولـون: حاك كـذا في صدري، بمعنى وقع في خاطـري وضاق به صدري (المجلة).

عبـد الله وهدأ روعه، وذهبت الهواجـس من صدره، وذاع ذلك من تلّطـف رسـول الله ﷺ به وقوله له بين صفـوف قومه من الأنصار، ونـزل مـن قلوبهم منـزل الماء مـن صـدر الصَّدْيـان، فكانوا بعد ذلـك هم الذين يتولَّون عقاب ابن أبـي، ويأخذونه بما يحدُث منه ويعنفونه عليه.

وهنا التفت رسـول الله ﷺ إلى عمر، فقـال له: «كيف ترى يا عمـر؟ أمـا والله لو قتلتـهُ حين قلت لـي اقتله لأرعدت لـه آنف لو أَمرتهـا بقتله اليوم لقتلتـه» فقال عمر -رضـي الله عنه-: قد والله علمتُ لأمرُ رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

وهـذا الموقف العظيم مـن الصحابي المؤمـن الصالح عبد الله بـن عبـد الله بن أبـيّ في إخلاصه لله ولرسـوله، وتقديـم محبتهما ومراضيهما على محبة ومراضي الأبوة التي كان أبرّ الناس بها -إن دل على شـيء فإنه يدل في مطلع ما يدل عليه أن الإيمان الحق إذا امتزج بالدم والروح وخالطت بشاشـته القلـب لا يترك معه مكانًا لغيـره مـن عواطف البشـرية ومعازّهـا، والأبوة أعـز المعزّات في عواطـف الناس، وقـد كان عبدالله من أبر النـاس بوالده، ولكن لم يجعـل لهذا البرّ أثرًا مع ما يتطلبه الإيمان بالله ورسـوله ﷺ، فهو لـم يتردد أن يعرض على رسـول الله ﷺ أن يقوم هـو بقتل والده، ويحمـل إليـه رأسـه إن كان ﷺ يريـد قتله، وهـذا تصوير عملي واقعي لتطهر النفس المؤمنة من أن يخالطها ما يخدش إيمانها.

هـذا موجز لحادث لو أنه تم على مـا أراده خبيث النفاق ورأس المنافقيـن، لعصـف بوحدة المجتمـع المسـلم الاجتماعية التي أقامـت المؤاخـاة دعائمهـا علـى الحـب فـي الله، ولله بيـن أفراد المجتمع المسلم من المهاجرين والأنصار.

المؤاخاة عنصر اجتماعي في تركيب المجتمع المسلم:

ومـن هنـا كان تصويرنـا لعقد المؤاخـاة وتفاعلاتهـا في ربط أواصر المجتمع المسـلم ربطًا اجتماعيًا لا يقف عند حالة موقوتة بزمـن أو مكان، أو جيـل من الناس، ولا يقف عنـد حالة مادية في توارث أو ارتفاق في لقمة العيش.

وإنما أنشئت هذه المؤاخاة لتكون عنصرًا اجتماعيًا في تكوين المجتمـع المسـلم وتركيبـه الاجتماعـي إلى جانـب الوحدة في النشأة، والوحدة الإيمانية ممثلة في العقيدة التوحيدية.

فالمجتمع المسـلم إذا حقق في حياته الخالدة -أينما كان هذا المجتمع المسلم من أرض الله، وفي أي زمان كان هذا المجتمع من دورات الفلـك ومن أي جيل كانت عناصره المؤمنة- هذه الدعائم الثـلاث: دعامة مقتضيات وحدة النشـأة، ودعامة وحدة الإيمان، ممثلـة فـي العقيـدة التوحيدية وإخـلاص العبوديـة لله -تعالى-، ودعامة وحـدة المؤاخاة الاجتماعية، ومـزج بينها في إطار روحي

ومـادي موحَّـد الهـدف والوسـائل كان هـو المجتمـع القيـادي المقصـود بقـول الله تعالـى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وإذا حقق المجتمع المسـلم هـذه الخيرية روحيًـا وماديًا كان زمام القيادة الإنسـانية بيده يقودها به إلى آفاق أقصى ما تسـتطيع الوصـول إليـه من تقدم حضـاري يقوم على أسـاس معرفة الحياة، ومعرفـة مـا في الكـون من أسـرار وآيـات كونية مسـخرة لمنافع الإنسانية وسـعادتها، ومعرفة هذه الأسـرار في عناصره الكونية، ليجنـي ثمراتها عملًا ماديًا وروحيًا، يجعله أسـاس حياته ودعائم حضارته التي تكسـبها خصائص مميزة لها عن سـائر الحضارات التي لا تعتمد على الإيمان والمؤاخاة.

❀ ❀ ❀

مؤاخاة الحب بين أفراد المجتمع المسلم

تمت المؤاخاة على الحب في الله، التي وجّه إليها رسول الله ﷺ أفراد المجتمع المسلم في أول عمل قام به ﷺ مقدمه المدينة بقوله: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين» وقد شملت هذه المؤاخاة عدد الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين كانوا طليعة المجتمع المسلم بالمدينة.

وكان الهدف من هذه المؤاخاة الفردية الإرادية تصحيح تركيب المجتمع المسلم اجتماعيًا، تصحيحًا يقوم على المحبة والاختيار، لم يدخله شيء من الإلزام في وسائله وغاياته، لأنه كان يعتمد على الترافق الودود، والمودة المخلصة والتعاون المتحرر من قيود الإلزام.

وقد ارتفع الأنصار في هذه المؤاخاة وسموا في حبهم لإخوانهم المهاجرين إلى ذروة المكارم، فلم يدّخروا شيئًا من ألوان الحب والإرفاق كانوا يستطيعون تقديمه لهم إلا قدموه لهم في إعزاز وتكريم، وسخت أنفسهم بالبذل الروحي والمادي سخاء لا يدخل في باب التكليف لعزّته في باب المكارم.

وكيف يدخل هذا السخاء في باب التكليف وهو إيثار على النفس بما تبلغ حاجتها إليه مبلغ الضرورة والاضطرار المبيح لكل

ممنـــوع؟ هكذا وصف القــرآن الحكيم إيثار الأنصــار للمهاجرين على أنفسهم حبًّا لهم وقيامًا بحق مؤاخاتهم.

وقد عــرف المهاجرون لإخوانهم الأنصار فضــل هذه العوارف وقدّروهــا لهم حق قدرها فأحلّوهم مــن قلوبهم محلًا لم يترك فيها فراغًا لغيرهم، حبًا وإخلاصًا وتضحية وفداء.

ومــن ثَمّ امتزج المجتمع المســلم بأفراده فــي وحدة اجتماعية شــعارها الحب في الله، امتزاجًا جعل منه تركيبًا بشــريًا فريدًا في حياة المجتمعات البشرية، فكانت له عناصره الروحية والمادية، وله خصائصه الإيمانية والفكرية، وله مميزاته السلوكية في أخلاقه وتعاشــره، وله نهجه التربوي في حياته، وله سَمْته في سيره بهذه الحياة الجديدة حتى كان في وســائله وأهدافه آية من آيات الإعجاز البشــري في تحويل النفوس في شتى منازعها، ومطالب غرائزها، والتطلّع إلى رغائبها الخاصة إلى وحدة نفســية متماسكة العناصر الروحية والمادية تماسكًا لم يترك منفذًا إلى تسرب (أناني) يتولّج إلــى مداخل النفس فيحيلها إلى أنفــس مختلفة المنازع والرغائب والتطلّعــات التــي تفضى إلى شــرخ في بناء الوحــدة التركيبية في مستقبل المجتمع المسلم الذي ناطت به الرسالة الخاتمة الخالدة قيادة الإنسانية، وهي في منهجها التربوي تُعِدّ هذا المجتمع ليقوم بهذه القيادة في مســتقبل الحياة الإنسانية، قيادة تقوم على دعائم

العدل والمساواة في الحقوق والواجبات التي يحكمها ما أوتيه كل فرد من الاستعداد في خصائص ومميزات القيادة.

مجتمع مؤاخاة الحب في الله كان نواة لمجتمع قيادة الإنسانية لمستقبل حياتها:

وقد أحكمت الأحداث والوقائع نسج هذه المؤاخاة، فأبانت عن أصالة في تركيبها العنصري المادي وخصائصها الروحية والفكرية، والتربوية السلوكية في الأخلاق، وتبادل المصالح التي تستمد وجودها من توجيهات الرسالة؛ مما هيأها لتكون دعامة في تأسيس المجتمع المسلم الذي يصوّر منهج الرسالة تصويرًا عمليًا في تحركاته وأعماله وتفكيره في صورته الكبرى المرتقبة التي تجد فيها الإنسانية مطالبها الحيوية ورغائبها النفسية وبواعثها العقلية، لتنهض بعبء القيادة الإنسانية على مدى سير الحياة في أطوارها المختلفة زمانًا ومكانًا وجيلًا، ووسائل وغايات.

وبهذا كان مجتمع هذه المؤاخاة الفردية في نشأته على الحب في الله قد تولّد في حناياها، ونهد في مهادها[11]، ودرج في ساحتها المجتمع المسلم الذي يحمل على كاهله عبء نشر الدعوة إلى الله، وعبء تبليغ الرسالة، وعبء الجهاد الفكري،

(١١) الحنايا: النواحي. ونَهدَ بمعنى شبّ ونشأ. والمهاد جمع مهد والمراد به الموطن (المجلة).

وعبء الدفـاع عن كيانه ومقوّماته الذاتيـة، وعبء تطهير الحياة مـن المآثـم التي يتبوأ ذروتها الإشـراك بالله تعالى في شـتى صوره ومختلف أشكاله الوثنية المزرية بقدر الإنسانية وقد بلغت رشدها العقلي. وشبّت عن طوق الطفولية البشرية صاعدة إلى آفاق منازل الشـباب والرجولية التكليفية المحفوفة بالمشـقّات والمتاعب، التي يترتب عليها الثواب والعقاب.

وقـد كان أثر هذه المؤاخاة الفرديـة الإرادية المحدودة القائمة على الحب في اسـتصلاح أخـلاط المجتمع المدنـي المتنافر في وسائله وغاياته استصلاحًا قام:

أولًا- على تصفية هذا المجتمع المتنافر من بقايا نفايات الشرك والوثنية الذين جانبهم التوفيق واستحوذ عليهم الشيطان، فأبادهم بقوة الإيمان، وإظهار شـعائر التوحيد، وتحقير أصنامهم والعبث بأوثانهـم غيظًـا لهم، وقد دخلت عليهم شـعائر التوحيد في عقر دورهم ودخائل بيوتهم، فشـرقوا بهـا لعجزهم عن مقاومتها[١٢]، وكانت غُصّة في حلاقيمهم، فهلكوا كمدًا بغيظهم.

ثانيًا- على إذلال اليهود، وإنزالهم من عرش الشيطان إلى هاوية الخـزي والخذلان، وكان هـؤلاء اليهود من بنـي قينقاع والنضير

(١٢) الشـرقة بالمـاء كالغـصّ بالطعام وهو سـريان المشـروب في غير مسـاره (المجلة).

وقريظـة هـم أصحـاب الصَّوْلة والسـلطان في المدينـة، منذ نزل عليهـم في الدهـر الأول الأوس والخزرج بعد حادث سـيل العرم، فسـاكنوهم موالي لهم، وأسـلموهم زمام الفضـل عليهم لجهلهم وبؤسهم، وحاجتهم إلى ما عندهم من وسائل العيش، وكان اليهود يملكون مجامع الثروة والعلم؛ لأنهم أصحاب الكتاب الذي أنزل إليهم على يدي نبيهم ورسـولهم موسى كليم الله -عليه السلام-، وكانـوا هم أصحـاب التجـارات والصنائع والزراعـات والحصون والقلاع والصياصي يحيطون بها بيوتهم ومنازلهم تأمينًا لأنفسهم وثرواتهم.

حتـى جاء الله -تعالى- بالرسـالة الخاتمة الخالـدة، التي بعث بها محمدًا عبده ورسـوله ﷺ، وجعله بها خاتم النبيين، وجعلها به خاتم رسـالات السـماء، فهـدى الله إليها هـؤلاء الموالي، أذلّة الأمس من الأوس والخزرج، ومنّ عليهم بنعمة الهداية إلى الإيمان برسـول الله محمد خاتم النبيين ﷺ، فأعزّهـم بعد ذلّة، وكثّرهم بعد قلّة، وأغناهم بعد إعواز، وعلّمهم بعد جهل، فأصبحوا بفضل الله عليهـم إذ هداهـم إلـى الإيمان هم السـادة الـذادة، وأصحاب الكلمـة العليا، وأصحاب العزّة والسـلطان، وأصحاب الصَّوْلة في مدينتهم، والثروة في بلدهم.

وخذل أولئك اليهود المستكبرين المتعزِّزين بعلمهم وثرائهم، وسـلبهم نعمتـه فأذلَّهم وشـتَّت جمعهم وفرَّق شـملهم، وبوّأهم

لعناته ومساخطه، وأورثهم الهوان والمهانة، وألبسهم سرابيل الغدر والخيانة وسوء المكر ولؤم الطبع، وضرب عليهم الذلّة والمسكنة، وألقاهم في أرجاء الأرض نبائذ، يعيثون فيها فسادًا، وسلط عليهم جبابرة الأرض يستبيحون حرماتهم ويسفكون دماءهم، ويذيقونهم لباس الجوع والخوف، حتى أصبحوا أعداء أنفسهم، بَلْه أعداء الناس والحياة، والله -تعالى- يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، ويؤتي ملكه من يشاء، وهو الحكيم الخبير.

إشعار النبي ﷺ اليهود بأن ما كان لهم من تعزز قد ولى وزال:

وقد أراد النبي ﷺ بعد أن صحّح تركيب مجتمعه المسلم بالمؤاخاة على الحب في الله أن يشعر هؤلاء اليهود أنهم لم يكونوا كما كانوا قبل، من عزة السلطان والصولة وجهارة الكلمة، لأن الله تعالى قد أذهب عنهم أعزّ ما كانوا يتعزّزون به من ادِّعاء العلم والمعرفة، وأن الله تعالى سلبهم هذه المعزة التي كانوا يتعالون بها على مواليهم من الأوس والخزرج، وأورثها المجتمع المسلم من أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار ومِنْ سائر مَنْ تبعهم من المؤمنين برسالته، المصدِّقين بدعوته بما أنزله عليه ﷺ من الكتاب المبين، والحكمة الهادية، وما أودع فيها من خير ونور وإصلاح، يقوم على دعائم العلم الأمين والمعرفة الصادقة،

وبما شــرع له من أحكام وسياسات، وأنظمة اجتماعية واقتصادية يحوطهــا العدل، مما نســف به كل ما تأسســت عليه ثرواتهم من الربا والسحت وأكل أموال الناس بالباطل، فكان حالهم في سلب موارد ثرواتهم وتكاثر أموالهم كحالهم في ســلب العلم والمعرفة عنهــم، فلم يبــق منه فــي أيديهم إلا الكــذب والافتــراء على الله، وتحريف كلمه عن مواضعها، وتبديل أحكامه وآياته بغيًا على الله وعَدْوًا على خلقه.

فســجّل عليهم ﷺ ذلك كلــه في كتاب أمــر بكتابته، وجعله دستورًا للمؤاخاة والألفة التي عقدها ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن لحق بهم وتبعهم وجاهد معهم.

وهــذه المؤاخاة كانــت مؤاخــاة تكليفية ملزمة، لهــا نتائجها الروحية والمادية، وليست كالمؤاخاة الإرادية الفردية التي كانت بين أفراد المجتمع المسلم أول ما كان تصحيح تركيبه الاجتماعي على المحبة وصدق المودة دون إلزام وتكليف.

ثالثًا- على إهمال شــأن المنافقين، وعدم الاعتداد بوجودهم، وتحقيــر أمرهم بالنظــر إليهم بين أخلاط المجتمــع المدني الذي كانــوا فيه ظلًا لليهود، يدورون معهم كما يدور ظلُّ الثور معه وهو يطحــن في مطاحن الهــواء، لأنه لم يكن للمنافقيــن في المجتمع المدني وأخلاطــه كيان متميز بخصائص إنســانية أيًّا كان وجهها

من الكفر والإيمان، مما اقتضى اطّراحهم عند النظر في استصلاح هذا المجتمع المدني ليخلو الطريق للمجتمع المسلم في سيره لنشر دعوته إلى الله، وتبليغ رسالته، لأن هؤلاء المنافقين أبوا على أنفسهم أن يكون لهم كيان متميز يعرفون به بين أخلاط المجتمع المدني، لما اتسموا به من الجبن الخالع، والجزع الهالع، والانزواء وراء الأحداث، والتخفي وراء الوقائع، يدّرعون التقية ليستخفُوا بها حتى لا تأخذهم أحكام الشريعة وحدودها، وكانوا يتداخلون مع المجتمع المسلم تداخل المخادع الخئون، وكان من يراهم في تداخلهم بين صفوف المسلمين يقول إنهم مسلمون، ولذلك كان رسول الله ﷺ يتغاضى عن مآثمهم وجرائمهم خشية أن يقول الناس: إن محمدًا يقتل أصحابه.

فالنبي ﷺ إنما تركهم لتفنيهم الأحداث ويذيبهم الغيظ والكمد كما تفني الذباب رياح السموم، وكان معظم شأنهم في إشاعة الأراجيف والأكاذيب، والدس وحوك الفتن، لأنهم قد أذلّهم الجبن والرعب كما وصفهم الله -تعالى- بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (التوبة: ٥٦، ٥٧) وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ (المنافقون: ٤).

❀ ❀ ❀

تحقيق حول كتاب المؤاخاة التكافلية

يتنــاول البحث هذا الكتــاب الذي أمر النبــي ﷺ بكتابته بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، وضمّنه ﷺ تبعية اليهود للمؤمنين في النصر والأسـوة، غير مظلوميــن ولا متناصر عليهم من وجهين:

الوجــه الأول- مــا قيمة هــذا الكتاب من جهة الثبــوت العلمي تاريخيًا؟

الوجــه الثانــي- مــا الذي يفيده نــص الكتاب فــي المقصد من كتابته؟ وما وضع اليهود فيه؟

أما الوجــه الأول فبيانه أن هذا الكتاب بنصه الكامل رواه كثير من أئمة النقل، ولم نر من طعن فيه سندًا أو متنًا، ويشبه أن يكون أسبق من رواه بنصه الكامل المطول المذكور في السيرة هو محمد بن إسحاق بن يسار، إمام المغازي والسير، ونقله عنه بنصه كاملًا ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) ولم يتكلم في سنده ولا في متنه بشــيء يشــعر بضعفه، بَلْه أن يكون موضوعًــا مكذوبًا، وابن كثيــر عالــم ناقد، إذا رأى مــا يقتضي التعقيب على ما يســوقه من الروايات عقَّب بما يراه من موجبات العلم والنقد.

وقــد قدّم ابــن كثير لنقــل نص الكتــاب عن ابن إســحق بعض الروايــات المؤذنة بثبوت الكتاب في الجملة، فقال بعد أن ســاق

حديث أنس بن مالك في المحالفة بين المهاجرين والأنصار الذي تكلمنا عليه عند الحديث عن المؤاخاة الأولى وحقّقنا القول فيه بما لا مزيد عليه: وقال الإمام أحمد: حدثنا نصر بن باب، عن حجاج -هو ابن أرطاة- قال: وحدثنا سريج، ثنا عبّاد، عن حجاج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ كتب كتابًا بين المهاجرين والأنصار أن يعقلوا معاقلهم، وأن يفدوا عانيهم بالمعروف والإصلاح بين المسلمين.

وهذا نص من رواية الإمام أحمد صريح بثبوت الكتاب عن النبي ﷺ؛ لأن المعنى المذكور في حديث عمرو بن شعيب هو محور الكتاب المذكور.

ثم قال ابن كثير: قال أحمد: وحدّثنا سريج، ثنا عبّاد، عن حجاج، عن الحكم عن قاسم، عن ابن عباس وساقه، قال ابن كثير معقِّبًا ناقدًا: تفرّد به الإمام أحمد. ثم قال ابن كثير: وفي صحيح مسلم عن جابر: كتب رسول الله ﷺ على كل بطن عقولة، وهذه إشارة واضحة إلى بعض ما تضمنه الكتاب، لأن قوله على كل بطن يوافق ما جاء في الكتاب من استعراض بطون الأنصار، وإلزام كل بطن بما يلزم البطون الأخري، والعقولة الديات جمع عقل، كقلْس وقلوس(١٣) -هكذا ضبطه وفسره النووي.

(١٣) القَلْس ما يخرج من الفم من ماء أو طعام (المجلة).

ثم ساق ابن كثير نص الكتاب عن ابن إسحاق فقال: وقال محمد بن إسحاق: كتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود، وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم، ثم ذكر نص الكتاب بطوله، إلى أن عقّب عليه بقوله: كذا أورده ابن إسحاق بنحوه، وقد تكلّم عليه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الغريب وغيره بما يطول إيراده.

وممن نقل نص هذا الكتاب عن ابن إسحاق أبو الفتح ابن سيّد الناس صاحب (عيون الأثر) وذكره تحت عنوان (ذكر الموادعة بين المسلمين واليهود) فقال: قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، ووادع فيه اليهود، وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم، ثم ذكر نص الكتاب، غير أن العنوان الذي وضع تحته نص الكتاب في (العيون) جعله مؤذنًا بأن الكتاب كُتِب للموادعة بين المسلمين واليهود، وهذا يفقد الكتاب حقيقة القصد من كتابته، وأنه كتب لأجل الموادعة بين المسلمين واليهود، مع أن ديباجة الكتاب تحمل في صراحة وضوح القصد من كتابته، وأنه إنما كتب ليكون دستورًا تكليفيًا ملزمًا يقوم على أساسه بناء المجتمع المسلم في حاضره ومستقبله بعد أن صحّحت المؤاخاة

الفرديـة الإرادية تركيـب هذا المجتمـع المسـلم اجتماعيًا على أساس الحب في الله ولله، وهي المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين أفراد المجتمع المسلم من المهاجرين والأنصار في أول عمل قام به ﷺ مقدمه المدينة.

وموادعـة اليهود في الكتـاب إنما جاءت تبعًا لإشـعارهم بقوة المجتمـع المسـلم فـي حياتـه الجديـدة، وأنهـم إذا أرادوا الأمن والاستقرار لأنفسـهم، على دينهم وأموالهم فلينزلوا عن غرورهم واسـتكبارهم إلـى تبعيتهـم للمسـلمين، كما يدل عليـه صريح الكتاب بقوله: وأنّ من تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

وقـد عقّب صاحب (العيون) علـى الكتاب بعد أن ذكره بنص ابن إسـحاق فقال: هكذا ذكره ابن إسـحاق وهو يقصد إلى ما في سـنده من إرسال، وابن إسـحاق متهم بالتدليس، وإرسال المدلِّس أضعف من إرسال غيره.

ثم قـال صاحب (العيون) ليدفع هـذا الضعف: وقد ذكره ابن أبـي خيثمة فأسـنده، قال: حدّثنا أحمد بن جنـاب أبو الوليد، ثنا عيسـى ابن يونس، ثنا كثير بن عبـد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جدِّه أن رسـول الله ﷺ كتب كتابًـا بين المهاجرين والأنصار، فذكره بنحوه.

وقد أشار إلى هذا الكتاب الترمذي وأبو داود، فذكر فيه حديث الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، قال: وكان كعب ابن الأشرف -اليهودي حِلْفًا وأُمًا، وأبوه من بني نبهان- يهجو النبي ﷺ، ويحرّض عليه كفار قريش، وكان النبي ﷺ حين قدم المدينة وأهلُها أخلاط، منهم المسلمون والمشركون، يعبدون الأوثان، واليهود، وكانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه، فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالصبر والعفو، وفيهم أنزل الله

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦).

فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذى رسول الله ﷺ أمر النبي ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطًا يقتلونه، فبعث محمد بن مسلمة -وذكر قصة قتله- فلما قتلوه فزعت اليهود والمشركون، فغدوا على النبي ﷺ، فقالوا: طُرق صاحبنا فقتل، فذكر لهم النبي ﷺ الذي كان يقول، ودعاهم النبي ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتابًا ينتهون إلى ما فيه، فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامةً صحيفة.

وهـذه العبارة التي ختم بها الحديـث صريحة في أن النبي ﷺ كتب بينه ومعه عامة المسلمين، وبين اليهود كتابًا، وأخذ عليهم أن ينتهوا إلى ما فيه، وهو ما يتفق مع قول من أورد نص الكتاب مبينًا أنه كتـاب موادعة ومعاهدة أقرّ فيه اليهـود على دينهم وأموالهم، وشـرط لهـم واشـترط عليهم، لأن الرعـب ملأ قلوبهـم، والفزع الهالع زلزل أقدامهم، فجاءوا إلى رسـول الله ﷺ فزعين مذعورين يطلبـون في ذلّة وخضـوع أن يؤمِّنهم ويحميهـم، ويضفي عليهم من سـلطانه ما يحفظ لهم الإقـرار على دينهم وأموالهم، فأعطاهم رسـول الله ﷺ مـا طلبوه علـى أن لا يغدروا بعهدهـم، وكتب لهم ذلك في كتاب جعله عهدا بينه وعامة المسلمين وبينهم، ولاشك أن هـذا الكتاب أو الصحيفة -كما في تعبير حديث أبي داود- هو هـذا الكتاب الذي روى نصه كثير من مؤرخي الإسـلام والمؤلفين في أحداث السـيرة النبوية؛ لأنه لا كتاب سواه عرف بهذا المعنى الذي احتواه.

وقـد ذكر حديث هـذا الكتاب أيضًا ابن سـعد فـي الطبقات، وذكره أبو سعيد النيسابوري في (شرف المصطفى) ورواه الحاكم في المسـتدرك، وتكلم عليه ابن الأثير في كتاب (النهاية) فقال: وفي كتابه ﷺ للمهاجرين والأنصار أنهم أمة واحدة على رِباعهم، يقـال: القوم على رباعتهم، ورباعهم، أي على اسـتقامتهم، يريد

أنهم على أمرهم الذي كانوا عليه، ورِباعة الرجل شأنه وحاله التي هو رابع عليها، أي ثابت مقيم.

وقد ذكر هذا الكتاب من المُحْدثين المعاصرين صاحبُ (الوثائق النبوية) حميد الله خان الهندي في وثائقه، على أنه وثيقة تاريخية من وثائق السيرة التي أمر النبي ﷺ بكتابتها.

وقال الزرقاني في شرح (المواهب): وفي مرسل عكرمة عند ابن سعد: فأصبحت يهود مذعورين، فأتوا النبيّ ﷺ فقالوا: قتل سيدنا غيلة، فذكَّرهم صنيعه وما كان يحرض عليه، ويؤذي المسلمين، فخافوا فلم ينطقوا، ثم دعاهم إلى أن يكتبوا بينه وبينهم صلحًا، فكان ذلك الكتاب مع عليّ بعد.

وقال القسطلاني والزرقاني في كتاب الشمائل من المواهب عند الحديث عن كتب النبي ﷺ التي كتبها لأقوام بلغاتهم، وما فيها من الفصاحة وبراعة البيان: وأين ذلك من كتابه بين قريش والأنصار، أنهم أمة واحدة دون الناس من قريش، قال الزرقاني: من قريش صفة، أي جزء منهم كأبنائهم وإخوانهم على نحو «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» يعني أن الأنصار دون غيرهم من الناس طائفة من قريش، فهو مبالغة في اتحادهم معهم حتى كأنهم من نسلهم -وهذا الوصف (من قريش) غير موجود في رواية ابن إسحاق ومن نقل عنه- على رباعتهم، يتعاقلون بينهم معاقلهم

الأولى، ويفكُّون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين المتّقين أيديهم على من بغى عليهم أو ابتغى دَسيعةَ ظلم، وأن سِلْمَ المؤمنين واحد على سواءٍ وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت يعقب بعضهم بعضًا، ومن اعتبط مؤمنًا قتلًا فهو قَوَدٌ إلا أن يرضى ولي المقتول، ومن ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلاّ نفسه، وأولاهم بهذه الصحيفة البَرّ المحسن.

ثم قال القسطلاني: كذا روي مختصرًا من حديث ابن شهاب، وقال الزرقاني: وذكره ابن إسحاق مطوّلًا في نحو ورقتين في مبحث الهجرة، قال ابن سيّد الناس: وأسنده ابن أبي خيثمة عن عمرو المزني أن النبي ﷺ كتب كتابًا بين المهاجرين والأنصار فذكره مطولًا بنحوه.

وابن أبي خيثمة أحمد بن أبى خيثمة زهير بن حرب، ترجم له الذهبي في تذكرة الحفّاظ، وأنه أخذ الحديث عن أحمد بن حنبل وابن معين، ونقل عن الدارقطني قوله عنه: ثقة مأمون، ونقل عن الخطيب قوله فيه: إنه ثقة عالم متقن حافظ.

هذه نصوص وروايات تدل كثرتها واجتماعها على معنى واحد، مع اختلاف رواتها زمنًا، واختلاف بعض عباراتها لفظًا على ثبوت هذا الكتاب ثبوتًا علميًا تاريخيًا، وأن النبي ﷺ أمر بكتابته

ليكون دستورًا للمجتمع المسلم وموادعة لليهود ما داموا منتهين إلى ما فيه بالوفاء.

الوجـه الثاني- ما الذي يعطيه نص هـذا الكتاب في القصد من كتابته؟ وما وضع اليهود فيه؟

تحقيق هذا الوجه مـن الوجهين اللذين يتناولهما البحث حول هـذا الكتاب يقتضينا أن نورد نص الكتاب ونثبته كما رواه الثقاة، ثـم ننظر فيه ليتبين القصد من كتابته بما تفيده عبارته وأسـلوبه، ويتبين من نصه وضع اليهود فيه.

عن الـدار قطنى قوله عنه: ثقة مأمون، ونقل عن الخطيب قوله فيه: إنه ثقة عالم متقن حافظ.

هـذه نصـوص وروايات تـدل كثرتهـا واجتماعها علـى معنى واحد، مع اختلاف رواتها زمنًا، واختلاف بعض عباراتها لفظًا على ثبوت هذا الكتاب ثبوتًا علميًا تاريخيًا، وأن النبى ﷺ أمر بكتابته ليكون دستورًا للمجتمع المسلم وموادعة لليهود ما داموا منتهين إلى ما فيه بالوفاء.

❀ ❀ ❀

نص الكتاب من سيرة ابن إسحاق

وقد ذكر ابن إسحاق الكتاب في سيرته بتهذيب عبد الملك بن هشام، وهي المتداولة بين أهل العلم دون أن يضع له عنوانًا خاصًا فقال: وكتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وَادَع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم.

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومَن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يُفدون عانيهم بالمعروف وال قسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى: وكل طائفة تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جُشم على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تُفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة

تُفـدي عانيهـا بالمعروف والقسـط بين المؤمنيـن، وبنو النبيت علـى ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولـى، وكل طائفة تُفدي عانيها بالمعـروف والقسـط بين المؤمنيـن، وبنو الأوس علـى ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين لا يتركون مُفرحًا بينهم(١٤) أن يعطوه بالمعروف في فـداء أو عقل، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمـن دونه، وأن المؤمنين المتقين علـى مَن بغى منهم، أو ابتغى دسـيعة ظلم(١٥)، أو إثم، أو عدوان، أو فسـاد بين المؤمنين، وأن أيديهـم عليه جميعًـا ولو كان ولد أحدهـم، ولا يقتل مؤمن مؤمنًا فـي كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمـن، وأن ذمة الله واحدة، يجيز عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض دون الناس.

التصـريح بتبعيـة اليهـود للمؤمنيـن مـن المهاجريـن والأنصار:

وأن مَـن تبعنا مـن يهود فإن له النصر والأسـوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سـلم المؤمنين واحدة لا يُسـالَم مؤمن دون مؤمن في قتال في سـبيل الله إلا على سـواء وعدل بينهم، وأن كل غازيـة غـزت معنا يعقب بعضهما بعضًـا، وأن المؤمنين يُبيء

(١٤) المُفرَح المُثْقَل بالدين (المجلة).
(١٥) الدسيعة: العظيمة (المجلة).

بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه، وأنه لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط مؤمنًا قتلًا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا ولا يئويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ.

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا مَن ظلم وأَثِم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا مَن ظلم وأَثِم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وأن لبني

الشـطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البِر دون الإثم، وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

وأن بطانـة يهود كأنفسـهم، وأنه لا يخرج منهـم أحد إلا بإذن محمـد ﷺ، وأنـه لا ينحجـز على ثـأرٍ جَـرْحٌ[١٦]، وأنـه مَن فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا مَن ظلم، وأن الله على أبر هذا.

وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصـر على مَـن حارب أهل هـذه الصحيفـة، وأن بينهـم النصح والنصيحـة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.

وأن اليهـود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يثرب حـرام جوفها لأهـل هذه الصحيفة، وأن الجـار كالنفس غير مضار ولا آثـم، وأنـه لا تُجـار حرمة إلا بإذن أهلها، وأن مـا كان بين أهل هـذه الصحيفة من حدث أو اشـتجار يخاف فسـاده فـإن مرده إلى الله عـز وجـل، وإلى محمد رسـول الله ﷺ، وأن الله علـى أتقى ما فـي هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجـار قريش ولا مَن نصرها، وأن بينهـم النصر على مَن دهـم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسـونه فإنهم يصالحونه ويلبسـونه، وأنهـم إذا دعوا إلى مثل ذلـك فإنه لهم علـى المؤمنين، إلا مَن حارب فـي الدين، على كل

(١٦) لا يمنع صاحب حق من حقه في القصاص (المجلة).

أنــاس حصتهم من جانبهم الــذي قبلهم، وأن يهــود الأوس مواليه وأنفســهم علــى مثل ما لأهل هــذه الصحيفة مع البــر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفســه، وأن الله علــى أصــدق ما في هــذه الصحيفة وأبــره، وأنه لا يحــول هذا الكتــاب دون ظالم أو آثم، وأن مَن خرج آمن، ومَن قعد آمن بالمدينة إلا مَن ظلم أو أثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رســول الله ﷺ اهـ نص الكتاب، وهو دســتور تكافلي جامع لأهم جوانب الحياة الاجتماعية لكل الداخلين فيه من مسلمين ويهود.

أمــا الوجه الثاني - فبيانه أن النظر فــي هذا الكتاب يفيد لأول وهلــة أنــه كتاب قُصِــد أن يكون دســتورًا ضابطًا لحيــاة المجتمع المســلم في حياته الجديدة، التي اتسع فيها مجال عمله، وقويت فيهــا شــوكته، وكثــر جمعه، وتظاهــرت عليــه واجباتــه الدينية والاجتماعية في صورتها الروحية والمادية، وضاق به ذرعًا أعداؤه في الداخــل والخارج؛ لأنه تبوأ في الحياة مكانة القيادة الداخلية، واندحر أمام ســلطانه غرور اليهود، بعد أن ألبستهم قوة المجتمع المسلم التي تزداد في كل لحظة عدًا وعدة أثواب المذلة والهوان، وســربلتهم ســرابيل الرعب المذعور، والفزع الهالــع، وأذاقتهم مــرارة الخوف المذهل في نومهم ويقظتهــم، وغدوهم ورواحهم،

حتى تجمدت حركاتهم، وبارت تجاراتهم، وشل تفكيرهم، وضاقت بهم الحياة، فلم يجدوا ملجأ يؤمنهم سطوة الأحداث إلا كنف رسول الله ﷺ، فأتوه صاغرين، يستغيثون ويستجيرون بعد أن هزت كيانهم بطشة فتيان المجتمع المسلم بسيدهم وشريرهم لعين الفجور كعب بن الأشرف الذي كان يهجو رسول الله ﷺ ويؤذيه، ويؤذي أصحابه في أعز مشاعرهم، بعد أن نقض عهده لرسول الله ﷺ أن لا يقاتله، ولا يحرض أحدًا على قتاله، وأن لا يظاهر عدوًا له، وأن لا يؤذيه بقول أو فعل، فقبل منهم رسول الله ﷺ ضراعتهم، وأمَّنهم على دينهم وأموالهم ما أقاموا ملتزمين للوفاء.

ويدل النظر دلالة قاطعة على أن القصد الأول من كتابة هذا الكتاب هو وضع دستور اجتماعي للمجتمع المسلم بما جاء في ديباجة الكتاب صريحًا لا يقبل التأويل من قول النبي ﷺ: «هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومَن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس».

فهذه الفقرة التي تصدرت الكتاب لتعنونه ليس فيها ذكر ـ أي ذكر ـ لليهود وموادعتهم، ولكنها تقرر وحدة المجتمع المسلم في

التزاماته ومسئولياته، وأن عناصره من المؤمنين والمسلمين، والمهاجرين والأنصار ومَن تبعهم فلحق بهم وانضوى تحت لوائهم، وجاهد معهم لإعلاء كلمة الله أمة واحدة، وأن هؤلاء المؤمنين الذين يتركب منهم بناء المجتمع المسلم، بعضهم موالي بعض في النصرة والأسوة، وأنهم في وحدتهم الإيمانية مجتمع موحد الوسائل والأهداف يجير عليهم أدناهم، وأنهم متكافلون في رد بغي مَن ظلم وبغى منهم، وأن أيديهم على هذا الظالم الآثم الباغي واحدة، ولو كان ولد أحدهم. وذكر الكتاب أن المهاجرين من قريش على ربعتهم واستقامتهم وأمرهم الذي كانوا عليه، وذكر مثل ذلك في طوائف الأنصار، وعددهم طائفة طائفة، وجعل كل طائفة منهم على أمرها الذي كانت عليه، وأن المؤمنين جميعًا متكافلون تكافلًا اجتماعيًا، فلا يتركون بينهم مفرحًا أثقلته الديون وكثرة العيال، بل عليهم أن يمدوا إليه يد المعاونة والمساعدة، ويعطوه حتى يرفعوا عن كاهله عبء حياته بالمعروف في فداء أو عقل.

وقد استغرق ذلك صدر الكتاب في تفصيل روابط المجتمع المسلم، وضوابط حياته في مستقبله والتزاماته نحو عناصره المركب منها بناؤه، قدرًا ليس بالقليل من حجمه.

موادعة اليهود أمر تبعي لم يكتب الكتاب من أجله:

ثـم بعد ذلك كله ذكر الكتاب اليهود في عبارة عابرة، صريحة بتبعية اليهود للمجتمع المسلم، فجاء فيه: وأنه مَن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

ثم عاد الكتاب إلى ذكر أحوال المجتمع المسلم في وشائجه الاجتماعية التي تُوِّجت بقول الكتاب: (وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ)، وهذا المعنى الكريم منتزع من قوله تعالى مخاطبًا المؤمنين خاصة: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩).

ثم ذكر الكتاب بعد ذلك أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما دام المؤمنون محاربين؛ لأن المجتمع المسلم ضَمِن لهم في تبعيتهم له النصر والأسوة، فإنفاق اليهود مع المؤمنين نتيجة لازمة لتبعيتهم للمجتمع المسلم وقيامه بحمايتهم ونصرهم إذا اعتدى عليهم أحد ما داموا محافظين على موجبات التبعية.

ثم ذكر الكتاب ما هو أدخل في إبراز تبعية اليهود للمجتمع المسلم، فنسب يهود كل طائفة من الأنصار إليها فقال: «وإن

يهود بنـي عوف أمة مـع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسـلمين دينهم، مواليهم وأنفسـهم إلا مَن ظلـم أو أثم فإنه لا يوتغ - أي لا يوبق ولا يُهْلِك - إلا نفسه وأهل بيته.

وهـذه هي الكلمـة الوحيدة التي جاءت فـي الكتاب عن تأمين اليهـود علـى دينهـم وقد صيغت - كمـا هو ظاهر - في أسـلوب التبعية للمجتمع المسـلم، ثم أخذ الكتاب يعـدِّد طوائف اليهود مُلْحَقيـن بطوائف الأنصار، بعد أن ذكر صـورة تأمين اليهود على دينهم وأنفسـهم عند ذكـره ليهود بني عوف، فقـال: وأن ليهود بنـي النجار مثل ما ليهود بني عوف، حتى اسـتكمل عدد طوائف الأنصار ومَن تبعهم من اليهود، ثم أبرز الكتاب سـلطان المجتمع المسـلم في شـخص النبي ﷺ، فقال: وأنه لا يخرج أحد منهم إلا بـإذن محمـد ﷺ، وذلك حذرًا أن يعـودوا إلى ما جُبِلـوا عليه من الغدر والخيانة والخروج إلى أعداء الإسلام ليحرضوهم على حرب المجتمع المسلم الذي صارت إليه الهيمنة المطلقة في المدينة.

ومـن هـذا البيـان يتجلَّى أن الكتـاب الذي أمر رسـول الله ﷺ بكتابتـه إنما كان كتابًا دسـتوريًا لتنظيم حياة المجتمع المسـلم تنظيمًـا تكافليًـا تكليفيا ملزمًا بمـا ورد فيه من أحـكام التكافل والعقـولات، ولإظهـار تبعية اليهـود لهذا المجتمع المسـلم بعد شـموخهم وغطرسـتهم وغرورهم وتحكمهم في الأوس والخزرج

قبل أن يدخل الإسلام عليهم، ويصفي أخلاط مجتمعهم المدني الموبوء بعبودية المال والوثنية، وأنه لم يكن قط كتابًا كُتِب وقَصَد قصدًا أوليًا لموادعة اليهود ومعاهدتهم وتأمينهم على دينهم وأموالهم، والاشتراط عليهم، والشرط لهم، وكل ماجاء في الكتاب من هذا النحو إنما جاء في ظل تبعية اليهود للمجتمع المسلم وإظهار سلطان هذا المجتمع بقيادة سيد المرسلين محمد ﷺ.

فالكتاب إنما كُتِب لتأسيس وحدة تكافلية اجتماعية تكليفية بين عنصري المجتمع المسلم من المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، وهم المهاجرون والأنصار، استعدادًا للمستقبل المليء بالمفاجآت.

نعم، جاء في الكتاب بعد أن استوفى بيان وشائج المجتمع المسلم، وأن أفراده في جماعتيه من المهاجرين والأنصار مع مَن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس، وأن مَن تبع المجتمع المسلم من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، - جاء فيه أيضًا: أن اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ولا شك أن هذه العبارات وأمثالها مما جاء في الكتاب تأمين لليهود، وإقرار لهم على دينهم، لكن الكتاب أبرز هذا التأمين في صورة تبعية

اليهود للمجتمع المسلم مما يدل دلالة واضحة على أن المقصود الأصلي من الكتاب ليس هو موادعة اليهود ومعاهدتهم والاشتراط عليهم والشرط لهم. وعلى أن الكتاب لم يكن بين النبي ﷺ وبين اليهود، وإنما هو كتاب كتبه النبي ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار الذين يتركب منهم بناء المجتمع المسلم ومَن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم لينظم به حياة المجتمع المسلم تنظيمًا يتكافأ مع ما سيلقى هذا المجتمع المسلم في سبيل نموه، وتكاثر واجباته نحو نشر دعوته إلى توحيد الله، والجهاد لإعلاء كلمة الله التي نيط به إعلاؤها وتبليغ رسالتها وهدايتها من أحداث يقوم بها أعداء هذا المجتمع في الداخل والخارج ليوقفوا نهضته، ويعوقوا نشر هدايته.

تجاوز بعض المؤلفين في عنونة الكتاب بموادعة اليهود:

فالذين عنونوا لهذا الكتاب في مؤلفاتهم وبحوثهم بالموادعة بين المسلمين واليهود ونحوها قد تجوَّزوا كثيرًا في هذه العنونة التي لا تعطي صورةً حقيقيةً عن محتويات الكتاب، فصاحب (عيون الأثر) إذ يقول في عنونة الكتاب (ذكر الموادعة بين المسلمين واليهود) لم يكن دقيق التعبير عن مضمون الكتاب

الــذي ذَكَر نصَّه تحت عنوانــه، إذ لم تكن الموادعة كل محتويات هذ الكتاب، وإنما كانت بعض محتوياته، وأقلها كما وكيفًا.

بــل إن بعض هــؤلاء المؤلفين قد أبعد النجعــة، وتجاوز القصد الأصيــل من كتابة هذا الكتاب وحوَّله إلى قصد فرعي لا يدل عليه نــص الكتاب إلا بشــيء من التعســف فــي التأويل كالســهيلي في روضه، إذ قال: كتاب رسول الله ﷺ فيما بينه وبين اليهود، شرط لهم، وشرط عليهم، وأمَّنهم فيه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

وهذا مســلك غريب لأن فيه إهدارًا للقصــد الحقيقي من الأمر بكتابــة هذا الكتاب كما يبدو مــن أول نظرة في نصه ومحتوياته، والسهيلي شــارح لسيرة ابن إسحاق، وابن إسحاق أسبق المصادر لهــذا الكتاب في ســيرته، وقد قــدَّم له قبل أن يســوق نصه بعبارة واضحــة الدلالــة على أن هــذا الكتاب لم يكن بين رســول الله ﷺ وبيــن اليهــود، وإنمــا كان كتابًا من رســول الله ﷺ بين المؤمنين المهاجريــن والأنصــار، وادع فيه يهــود وعاهدهــم. وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم.

فما الذي دعا الســهيلي وهو شارح ســيرة ابن إسحاق أن يترك عبارتــه ويخترع عبارةً من عنده يعنون بهــا الكتاب، وكيف رضي الســهيلي على نفســه في فضله وعلمه أن يهــدر ديباجة الكتاب، وهي من كلام رسول الله ﷺ، وهي صريحة الدلالة على أن الكتاب

من رسـول الله ﷺ بين المؤمنين والمسلمين، كما يقتضيه نصها إذ تقول: هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثـرب ومَن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس.

فأيـن يقع عنوان السـهيلي في روضه للكتـاب بقوله: (كتاب رسـول الله ﷺ فيما بينه وبين اليهود) من هـذه الديباجة المعبرة عـن مقصد الكتاب في محتوياته؟ وأين في نص الكتاب أنه كتاب رسـول الله فيمـا بينه وبين اليهـود؟ كل ذلك يجعلنا نسـتبعد أن يكون هذا العنوان في روض السـهيلي من وضع السهيلي وعبارته، ولعل هذا من تصرفات محقق الروض والمعلق عليه، فإن كان ذلك فما أشد بلاء التراث الإسلامي بمحققيه على دواوينه.

إن التاريخ الإسـلامي ابتُلي باليهود فشـوّهوا كثيرًا من حقائقه وأهدافـه، ليفتنوا أهله ويصدوهم عنـه، وابتُلي بأهل الغفلة الذين يقبلون ما يُقال لهم دون نظر وتمحيص.

وهذا التاريخ في أشـد الحاجة إلى الدقـة في كتابته، التي تضع الأمور فـي مواضعها، وتضع الأحداث في مواطنها، وهو في أشـد الحاجة إلى الصدق والأمانة والديانة التي تراقب الله وتخشاه، حتى يمكن أن يقدم هذا التاريخ لشـباب الإسلام في إطار البحث الأمين المتعمـق، بصورته الواقعيـة حتي يعلم المسـلمون حين يقرءون

تاريخهم أنهم يفسرون به قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون : ٨) .

وقد أحسن ابن كثير كل الإحسان في كتابه (البداية والنهاية) وهو يقدم لهذا الكتاب النبوي فيقول : فصل في عقده ﷺ الألفة بين المهاجرين والأنصار بالكتاب الذي أمر به، فكتب بينهم المؤاخاة التي أمرهم بها . . وموادعته اليهود الذين كانوا بالمدينة، فهذا تعبير موفّق مونّق، يصور الواقع في صورة صادقة جامعة معبرة .

وقد شرح السهيلي بعض كلمات الكتاب وألفاظه التي تبدو غريبة على مَن بَعُد عهدُه باللغة العربية في منازلها من محافل العرب وأسواقهم ومواسمهم ومضارب قبائلهم وبطونهم، وعلى مَن لم تكن له عناية بالأدب العربي، والنظر في معاجم الألفاظ وتفسيرها .

تفسير السهيلي لبعض ألفاظ الكتاب:

فقال في كلمة (ربعاتهم – أو رباعتهم) ، وفي الكتاب : بنو فلان علي ربعاتهم . هكذا رواه أبو عبيد عن ابن بكير عن عقيل بن خالد، عن الزهري، ورواه عبد الله بن صالح بهذا الإسناد، فقال :

رباعتهم، الألف بعد الباء، ثم قال أبو عبيد: يُقال فلان على رباعة قومه إذا كان نقيبهم ووافدهم.

ثم قال السهيلي: وكسر الراء فيه القياس على هذا المعني - أي معنى النقابة والوفادة، لأنها ولاية وإن جعل الرباعة مصدرًا فالقياس فتح الراء - أي علي شأنهم وعادتهم من أحكام الديات والدماء. يتعاقلون معاقلهم الأولى، جمع معقله، ومعقله من العقل وهو الدية.

ثم قال السهيلي بعد أن ذكر تفسير ابن هشام لكلمة (مفرح): وذكر أبو عبيد رواية أخرى (مفرج) بالجيم، وذكر في معناه أقوالًا، منها أنه الذي لا ديوان له، ومنها: أنه القتيل بين القريتين، لا يُدرى مَن قتله، ومنها: الذي لا شيء له، وقد أثقله الدين، فيُقضى من بيت المال.

وفيه - أي في الكتاب - ولا يوتغ إلا نفسه، أي لا يوبق ولا يُهلك إلا نفسه، ومعنى قوله: يبيء من البواء وهو المساواة.

وقوله: وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، أي إن الله وحزبه المؤمنين على الرضى به.

ثم نقل السهيلي عن أبي عبيد في كتاب الأموال قوله: إنما كتب رسول الله ﷺ هذا الكتاب قبل أن تُفرض الجزية، وإذ كان

الإِســلام ضعيفًا ، وكان لليهود إذ ذاك نصيب في المغنم إذا قاتلوا مع المســلمين ، كما شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحرب .

بحث ونظر في كلام لأبي عبيد نقله عنه السهيلي:

قلــت : وفي كلام أبــي عبيد نظر ، إذ لم يُعرف في وقائع الجهاد الإِســلامي على عهد رســول الله ﷺ واقعة واحدة أن اليهود قاتلوا فيها مع المسلمين ، وهذه غزوات رسول الله ﷺ وسراياه محفوظة مدونة محصورة العدد ، معروفة الأمكنة والأزمنة وأســماء مَن خرج فيها من جنود الله وحزبه ، وليس فيها مشــاركة اليهود في القتال ، ولا أنهم حصلوا على نصيب من مغانم المسلمين .

وكذلــك فــي قولــه : (إذْ كان الإِســلام ضعيفًا) نظــر ؛ لأن هذا الكتــاب كُتب كما في حديث الترمذي وأبــي داود إثر قتل اللعين كعب بن الأشــرف ، وقتْلُه إنما كان على رأس خمســة عشــر شهرًا بعــد الهجرة بعــد واقعة بدر التــي عز بها الإِســلام ، وقُتل فيها من صناديد كفــار قريش ورءوس ملئهم عدد كبير بلغ ســبعين قتيلًا ، وأســر منهــم وغنم فيها المســلمون غنائــم كثيرة ، وقــد كان لها صدى بعيد المدى ، في تقوية شــوكة الإِسلام والمسلمين ، وإذلال الشــرك والمشــركين وفجار اليهود ، حتى قال فيها اللعين الفاجر

كعب بن الأشرف حينما سمع زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وقد قدما ببشرى النصر للمدينة، وهما يخبران عن قتل صناديد كفار قريش وطغاة ملئها: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء لَبطنُ الأرض خير من ظهرها.

فالكتاب لم يُكتب إلا وقد عز الإسلام وانتصر على أعدائه انتصارًا أذلهم وأضعف شوكتهم ولم تقم لهم بعد هذا النصر قائمة، والذي وقع في أُحُد إنما كان درسًا للمسلمين تعلموا منه الكثير الذي أفادهم في مستقبلهم وسائر وقائعهم، وكانوا أعزة رغم ما كان فيها.

الكسالى المسترخون لا يقوون على العمل ويثبطون العاملين:

سيقول المخلفون عن ركب الحياة في استرخاء نئوم، وتثاؤب زائع من الذين يعيشون في دنيا الإسلام من أجل أنفسهم، أسرى رغائبهم، وعبيد غرائزهم، الذين لا يطيقون سماع غرغرة بطونهم المنهومة، وهم عاجزون عن كبح جماح شهواتهم الهابطة، ولا يقوون على معاناة الصبر إذا وجدوا، أو إذا فقدوا، ولا يحتملون مرارة العمل الجاد الصموت لإصلاح أنفسهم، ثم إصلاح مَن يتصل بهم اتصالًا قريبًا دانيًا من زوج أو ولد لإصلاح مجتمعهم الصغير

فـي بيوتهـم ثم إلى إصـلاح مجتمعم الكبير في مسـاجدهم، وفي مدارسـهم، ومعاهـد العلم وجامعاته أو فـي مصانعهم ومزارعهم، وأسـواق تجاراتهم وفي محافل أفراحهـم، ومجتمعات أحزانهم، ليجعلوا من ذلك وسيلة - إذا صدقت العزائم - لإصلاح مجتمعهم الأكبر مجتمع الوطن الواحد، والأمة الواحدة.

هـذا المجتمـع الجامـع الـذي يقوم بنـاؤه على تلـك اللبنات المتفرقـة فـي المجتمعـات الصغيـرة، التـي إذا أحسـن أخذهـا بصغـار أمـور التربية قبل أن يدركها سـوس الفسـاد، فينخر عظام الإصلاح فيها، ثم ينـدرج بها في تربية عملية متدرجة من الصغير إلـى الكبير، ومن الكبير إلى الأكبر، ومـن المهم إلى الأهم، ومن البسـيط إلـى المركب، ومـن المركب إلـى الممـزوج الموحد، ومن مطالب الجسـم إلـى مطالب العقل، ومن مطالـب العقل إلى مطالـب الروح - سـيقول أولئك المخلفون الذيـن قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ (المنافقـون: ٤) مـا هذه التخيـلات التي تريد أن تعيد إليها المجتمع المسـلم؟ وكيف يمكن أن تتحقق له هذه المؤاخاة بآثارها الاجتماعية التي كانت دعامة للمجتمع المسـلم أول نشـأته، وهو محصور العدد والمكان، موحد القيادة والمنهج في التربية، متقارب المطالب، متشـابه الرغائب، وهذا المجتمع

المسلم اليوم في ترامي أطرافه، وتعدد مواطنه، وتباعد المسافات بين هذه الأوطان، وكثرة أعداده وتعدد قياداته، واختلاف مناهجه السياسية والفكرية والتعليمية، وضخامة مطالبه، واختلاف منازعه، وتفرق مذاهبه ونحله، وشيعه وفرقه، وطوائف أحزابه، لكل حزب وسائله وأهدافه.

وهؤلاء القائلون لذلك إنما يقولونه بلسان التخلف عن ركب الحب تحت وطأة (الأنانية) وهم بهذا يقلبون الدواء داء، ويضعون الداء مكان الدواء، ويوهمون أن في الشفاء سقمًا، وفي المرض شفاء، ليُرضوا بذلك أنفسهم بالقعود مع الخالفين عن جهاد الإصلاح الداخلي في أوطان المجتمع المسلم، وليخلدوا إلى راحة اليأس في ظلال البطنة، أشباحًا ليس فيها للحياة غناء أي غناء، لأن ترهُّل الكسل أصاب أعصاب الحياة في أبدانهم، ولم يترك في أرواحهم لمعة إشراق من النور والهدى وحب الإصلاح.

إننا لم نقل بوجوب أن يكون المجتمع المسلم في يومه كما كان المجتمع المسلم في أمسه على عهد رسول الله ﷺ وأصحابه في مؤاخاته التي وصفناها بآثارها العملية في نوعيها الفردي القائم

على الحب في الله، ولله، والجماعي القائم على التكافل التكليفي الاجتماعي، تلك المؤاخاة التي نهضت بالمجتمع المسلم نهضة مكّنته من زمام قيادة الحياة - وإن كان هذا هو ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع في حياته كلها - ولكنا رسمنا صورة لواقع المجتمع المسلم في أطواره التي مر بها على عهد رسول الله ﷺ، وذكرنا عوامل كل طور وبواعثه، وما وصل إليه ذلك المجتمع في هذا الطور وقد كانت كلها أطوارًا بشرية اجتماعية، ليس فيها معجزات خارقة لنواميس الحياة وقوانين الطبيعة إلا ما كان خاصًا به ﷺ من أمور خارقة مرتبطة بشخصه ﷺ لحفظه وحمايته من غدر أعدائه.

والمؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين أصحابه - في طوريها الفردي القائم على الحب في الله، أو الجماعي القائم على التكافل التكليفي الذي جعله النبي ﷺ دستورًا ملزما، وكتب به كتابًا جعله وثيقة طبقها المجتمع المسلم في حياته الاجتماعية التكافلية - إنما كانت نوعًا من التربية الاجتماعية للمجتمع الجديد المسلم قامت على أساس وحدة هذا المجتمع وحدة كانت أقوى دعائم قوته الروحية والمادية في مواجهة أعدائه في الداخل، الذين قهرهم وصفى أخلاطهم، وانفرد بقيادة الحياة في الداخل والخارج.

وهي بهـذا التصويـر لحقيقتهـا، والتقدير لوزنها ليسـت من المحالات التي يُستعظم وجودها في تربية المجتمع المسلم اليوم كما ربته بالأمس، إذا أخذنا في تقديرها ووزنها ما طرأ على الحياة مـن (تطور) فـي الفكـر والمعرفة، ووسـائل العيـش، واختلاف السـلوك، والقـوى المادية الهائلـة، وضعف القـوى الروحية أمام هـذه القوى الماديـة المجنونة واختلاف مناهـج الحياة عند الأمم والشعوب.

لأن هـذه الأمور وغيرها دخلت في تركيـب الحياة، وأصبحت عناصـر ضرورية في تركيبها، فإهدارها والتغاضي عنها، والتعامي عن آثارها ضرب من السـلبية العمياء التي لا ترى ما بين يديها من مزالق وانحدارات.

وفـي نهج النبي ﷺ الـذي نهجه في عقد المؤاخـاة بين أفراد المجتمـع المسـلم علـى الحـب فـي الله ولله، ثـم بيـن جماعات المجتمـع المسـلم على التكافـل الاجتماعـي التكليفـي توجيه للمجتمع المسلم اليوم إذا أراد هذا المجتمع أن يأخذ بهذه التربية العملية فـي تصحيح تركيبه جريًا على منهج المؤاخاة في نوعيها ليسـتعيد عزته وكرامته، بل ليستعيد سـلطانه وسيادته في قيادة الإنسانية.

المجتمع المسلم قهر أعداءه بالمؤاخاة:

لقد كانت أخلاط المجتمعات المادية المعادية للمجتمع المسلم في قوتها المادية يوم أخذ المجتمع المسلم تربية المؤاخاة لا تقل ضراوة عن المجتمعات المعادية للمجتمع المسلم اليوم عند النظرة التناسبية بحسب الزمان والمكان والعدد والعدة وإعداد القوى البشرية ووسائلها التدميرية الصناعية، (وتطور) الفكر ونتائجه واستخدام العلم في إنتاج القوى المادية، ولكن المجتمع المسلم بروح التربية الاجتماعية التي قامت عليها المؤاخاة التكافلية وبمنهج الوحدة التمازجية أمكنه أن يتغلب على تلك القوى المادية فيقهرها، بل إنه بروح المؤاخاة قضى على قوة أعدائه على بهظها وضخامتها قضاء لم تقم لهم بعده قائمة.

فالنبي ﷺ عمد إلى عنصري المجتمع المسلم بوصفهما المحدد لذاتيهما، المهاجرين والأنصار فآخى بينهما -أولا- مؤاخاة أساسها الحب في الله، ولله، ثم لما اشتد ساعد المجتمع المسلم وكثر عدده، وشَرِق به أعداؤه في داخل المدينة من اليهود، وبقايا نفايات الشرك والوثنية، واشتد طغيانهم بتحريض كفار

قريش ومن تَجَيَّشَ معهم من قبائل العرب، واجتمعت كلمتهم على محاربة المجتمع المسلم إرادة إبادته واستئصال شأفته، لا سيما بعد وقعة بدر التي ملأت قلوبهم حقدًا ورعبًا وغيظًا مكمدًا، ونغلت بها أفئدتهم واحترقت بآثارها أكبادهم، رأى النبي ﷺ أن يعقد بين عامة عناصر المجتمع المسلم مؤاخاة اجتماعية، تكافلية، تكليفية إلزامية، وكتب بذلك كتابًا جعله وثيقة دستورية بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومَن لحق بهم وجاهد معهم، وهو الكتاب الذي فصّلنا فيه القول تفصيلًا أبان عن ثبوته تاريخيًا، وأبان عن مقاصده وغاياته وموجباته.

وقد كان لهذا الكتاب أثر قوي جعل من المجتمع المسلم قوة موحدة، وقفت أمام تجمعات أعدائها مواقف حاسمة تُوّجت بالنصر المؤزر، ذلك النصر الذي سار دويُّه بالرعب يحمله إلى قلب الجزيرة العربية وإلى أطرافها، فزلزل الأرض من تحت أقدام تلك القبائل المتربصة، فاستسلمت لقوة المجتمع المسلم المتكافل في جهاده لإعلاء كلمة الله شيئًا فشيئًا حتى طواها تحت أجنحته فاهتدت بهداية الإيمان، وعرفت الله بوحدانيته وإخلاص العبودية له وحده، فجمعها تحت لوائه، وخرج بكتائبها

المجاهدة إلى مشارف الجزيرة لينذر بهم ما وراءها من قوى أجنبية كانت تتربص بالمجتمع المسلم وتستعد لمهاجمته في عقر داره، فأرهبهم بقوته المادية وأدخل الرعب في قلوبهم بقوته الروحية، وحشر للروم في غزوة تبوك جحافل الكتائب التي كانت تحب الموت في سبيل الله أكبر من حب أعدائهم للحياة، فلم يخرج الروم بحشودهم لملاقاتها، لأنهم جاءهم ما خلع أفئدتهم، وعلموا منه أنهم لا طاقة لهم بهؤلاء الذين كانوا رهبانًا بالليل وفرسانًا بالنهار.

وعاد رسول الله ﷺ من هذه الغزوة التي كانت آخر غزوة خرج فيها بنفسه الشريفة، يقود جحافل المجتمع المسلم، ليريهم أن قوة الإيمان المتكافل لا تقف أمامها قوة ولو كانت كثيفة العدد عظيمة العدة.

وهكذا كانت هذه الغزوة تمرينًا للمجتمع المسلم على غمز قناة الذين يقفون وراء الجزيرة العربية في غرور أجوف وغطرسة كاذبة، واستكبار متورم، ليروزهم[١٧] ويختبر ما عندهم من القوة التي يتعزّزون بها تكذّبًا وعجرفة.

(١٧) راز يروز: امتحن الشيء وأصلحه (المجلة).

إحياء المؤاخاة الاجتماعية بين عناصر المجتمع المسلم:

وقد صدقت هذه التجربة في أداء ما قصد منها، وطمع المجتمع المسلم في الدولتين اللتين كانتا تحيطان به، وكان اسم كل واحدة منها في الجاهلية كفيلًا بأن يصيب قبائل العرب بالدوار، حتى جاء المجتمع المسلم المتكافل في جهاده فغزاهم شرقًا وغربًا ودخل عليهما في عقر دورهما، وهما الدولتان اللتان كانتا تملكان زمام القوة المادية في عددها وعدّتها في ذلك العصر حتى أدخلهما في حظيرة الإيمان والهداية وحرّر كل ما كانت تحكمه الروم بالظلم والبغي من بلاد العرب، وحرّر فارس كلها وزرع في قلوب أهلها الإيمان والهداية، فكانت ركنًا من أركان المجتمع المسلم في القوة الروحية والمادية والفكرية.

هذه الآثار التي حققها المجتمع المسلم في ضخامتها كانت عملًا من أعمال المؤاخاة بنوعيها الفردي القائم على الحب في الله والجماعي القائم على التكافل الاجتماعي التكليفي، ولم تزل هذه المؤاخاه تعمل عملها وتحقق آثارها في الفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته إلى خلقه، وإعلاء كلمته في آفاق الحياة إلى أن ابتلي المجتمع المسلم بالترهّل المترف، والميوعة الاجتماعية، فتفرقت وحدته الإيمانية، وحلت محلها

النعـرات القومية الملحدة فتوقف عمـل المؤاخاة، وتمكَّن أعداء المجتمع المسـلم من تمزيـق أديمه وتفريقه إلـى دويلات هزيلة مستضعفة.

وبقـي الأمـر علـى هـذا الانتـكاس المـزري والوضـع الوبيء المتهافـت الذليـل الـذي أعطى أعداء المجتمع المسـلم سـلاحًا يكيدونـه بـه، بعـد أن تمكنوا مـن التحكم في مصايـره ومصادر ثرواته، فاستخرجوا كنوزه وحوّلوها ذهبًا إلى أوطانهم، وصنعوها أدوات علمية ووسـائل للعيش في حياتهـم المترفة التي يحيونها في أوطانهم فسادًا وإفسادًا ومعاول للتدمير في أوطان المسلمين، نتيجـة للعلـم الملحـد، والمعرفـة الكافـرة، ولـم يتركـوا منها لأصحابها إلا ما يتسـاقط من فتات موائدهم، وحتى هذا الفتات لا يتم إنفاقه في الصالح العام إلا قليلا، حتى أصبحت الأمة عاجزة عن النهوض بواجباتها إلا بالخطب على منابر المسـاجد، والدعايات الجوفاء التي لا تصنع شـيئًا إلا أن تنيم الشعوب في كهوف التأخر الفكري، والتخلف الاجتماعي والفراغ الروحي، والضياع المادي والعجز عن التحرك لتصحيح تركيب المجتمع المسـلم تصحيحًا يعيد له حياته الكريمة، وقوته التاريخية، ويمكنه من معرفة نفسه في أوطانه، واستغلال ثرواته، وكنوزه بسواعد أبنائه، وتفكيرهم، وتصنيـع خاماته، وإعـداد القوة الرادعة لأعدائه، ليسـير بدعوته

إلـى الله وتوحيده آمنًا قويًا، مفكرًا، دون أن يخشـى العقبات التي تُقام فـي طريقه على أيدي الوثنيات الملحدة الجديدة الممثلة في الشـيوعية، والصهيونية، والماسـونية، والروتاريـة، والوجودية والخنفسـية والبهائيـة مـن كل النحـل الملحـدة، التـي تجمعها عداوتهـا للإسـلام وحقدها علـى المجتمع المسـلم، والتي تقف وراءها حكومات بكل قواها المادية والدعائية الشـريرة ممثلة في جماعـات التبشـير والتكفير، وخداع الاستشـراق الفكري الذي يتخـذ من العلـم والمعرفة سـتارًا يغطِّي بـه فكره السـيئ وجدله المعربد، وخداعه الماكر وكيده الحقود.

لن ينهض المجتمع المسلم من كبوته إلا إذا عاد إلى منهجه الأصيل في تربيته الإسلامية:

إن المجتمـع المسـلم لـن ينهض مـن كبوته، ولـن يصحو من غطيط نومه، ولن يتنبه من ذهول غفلته، ولن يستيقظ من غفوته، إلا إذا عـاد إلـى منهجـه الأصيل فـي المؤاخاة التكافليـة والتربية الروحيـة التي توقظ فيـه عوامل الإيمان ومعرفتـه بحقيقة تاريخه معرفـة حقيقية، يقف منها على بواعث نهضته في تاريخه وعوامل قوته في مسـيرته، ليعيد تطبيقها عمليًا في حياته، ويعرف آثارها في نهضته التي استطاع بها أن يقود الإنسانية روحيًا وماديًا وفكريًا فترة من الزمن، كانت من أرفع فترات الحياة في وزنها الحضاري،

كما يقف منها على معرفة ما صادفه في طريق سيره من المعوقات التي انحسر تحت أقدامها المدّ الإسلامي، وهو اليوم لا يزال في انحساره، بل تقهقره وعجزه عن التحرك المتفاعل مع تصاريف الحياة، وهي تجدّ السير مسرعة، لا تتوقف عند أشباح تغط في نومها، ولكنها تتابع مشيها في سيرها مغذة لا تني ولا تفتر(١٨)، لا يعيق سيرها رميم الأشباح من بقايا مجتمع كان له في الحياة شأن مذكور، ثم على حين غفلة فقد كل شيء من مقوماته الذاتية، بل فقد نفسه وتاريخه وخصائصه الروحية والفكرية والمادية والتربوية، وهو يعيش في ضياع لا يشغله من أمر الحياة إلا ما يشغل خَشاش الأرض(١٩).

والخطوة الأولى في إنقاذ المجتمع المسلم من كبوته، وإيقاظه من رقدته، وتنبيهه من غفلته هي إنهاضه من استرخائه المتثائب، وإنعاشه من تخدّره المستسلم للواقع الظلوم الذي سلبه مقومات الحياة الجادة، وهذا الإنعاش لا تنفع فيه رنات الخطب وجهارة الدعايات الجوفاء، والتنادي بالشعارات في الندوات والتجمعات واتخاذ القرارات التي تتبخر مع الهواء.

وإنما يكون إنهاض المجتمع المسلم وإنعاشه بالعمل الإيجابي

(١٨) ونى: ضعف وتراخى (المجلة).
(١٩) خشاش الأرض: دوابها وهوامها وحشراتها (المجلة).

القائم على دعائم العلم والمعرفة وقوة التفكير الدافعة على الحركة والنهوض لحمل العبء الذي كان يحمله يوم أن كانت خصائصه الذاتية ممثلة في نهجه السلوكي والتربوي.

لا ينهض المجتمع المسلم إلا بقيادة موحدة:

بل إن إنهاض المجتمع المسلم اليوم لا يكون إلا بدقِّ أجراس الخطر ليشيع في أرجائه الشعور والإحساس، ويشمل كل ذرة في ذرات هيكله، ليقف على قدميه مستعدًا للعمل وراء قيادة مؤمنة، راسخة اليقين، عظيمة الإخلاص لإنهاض هذا المجتمع عليمة بالماضي والحاضر، قوية التفكير في الخروج من المآزق والأزمات، جريئة الفؤاد، فدائية الروح، حذرة من السقوط في منحدرات السياسة الخادعة، شديدة التوقي من مخادعة الأصدقاء والأعداء على سواء، وليس للصداقة في واقع إرادة تصحيح تركيب المجتمع المسلم وجود؛ لأن هذه الصداقة صداقة مظاهر ومخادعة، تقصد إلى الانتفاع والفائدة، وهذا نوع من الصداقات لم يعتدَّ به رسول الله ﷺ حين أخذ في تصحيح تركيب المجتمع المسلم الاجتماعي ليعدّه لتحمل أعباء المستقبل، ولكنه ﷺ عمد إلى عناصر هذا المجتمع فآخى بينها مؤاخاة تقوم على الحب في الله، ثم لما اتسعت رقعة المجتمع المسلم، وكثر عدده آخى

بيـن جماعاتـه مؤاخاة تكافلية تكليفية، ألحـق بها موادعة لأقوى أعداء المجتمع المسـلم، وهم اليهـود، وفرق كبير بين الموادعة والصداقـة، فالموادعة إنمـا تقصد إلى مكافة الموادع اتقاء شـره وسـوء مكره، والصداقة وشيجة تُمكِّن مَن يتصف بها من مداخلة المجتمع المسـلم ومعرفة أخباره وأحواله، والاطلاع على ما عنده من قوى مادية أو فكرية أو روحية.

وقد كانـت هذه المؤاخاة التكافليـة التكليفية عنصرًا في بناء المجتمع المسـلم وهو يحمل على كاهله عبء مستقبله في نشر الدعوة إلى الله، وتبليغ الرسـالة، وسـير الفتوحات وإقامة صروح العدل والمسـاواة بين أبناء الإنسانية في الحقوق والوجبات، مما جعل من المجتمع المسـلم وحدة امتزج بروحها أفراده وجماعاته أينما حلّ من أرض الله في وطن من أوطان هذا المجتمع.

وقد تغلبت إيجابية المؤاخاة في آثارها العملية على عوائق الفتن الداخلية، فلم تستطع رغم ضراوتها وشراستها أن تقف عائقًا أمام عمل المؤاخاة في إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله، ونشر العلم في المدارس المسـجدية، والمسـاجد المدرسـية التـي قامت في أوطان الإسـلام على نهج قيام المسجد الأعظم في المدينة المنورة عاصمة الإسـلام، وكانت تـؤدي عملها الدراسـي والعبادي جنبًا

إلـى جنب، وتقوم بواجباتها مـن وراء كتائب الفتوحات وجحافل الجهاد.

ولـم يكـن اتسـاع رقعـة المجتمـع المسـلم، وتعـدُدُ مواطنه وقياداتـه، واختلاف مطالبه في أوطانه، وما صادفه في فتوحاته من أفكار وفلسفات ومذاهب وبقايا نِحَل في البلاد المفتوحة مع تدافع المنـازع التي فرّقت المجتمع إلى شـيع وأحزاب وطوائف مختلفة الآراء والفلسـفات ومناهج السلوك- عائقًا دون سير الدعوة وهي تَحْمل راية الجهاد لتبليغ الرسـالة وإقامـة موازين العدل، وتوحيد الحكـم، وتحكيم الشـريعة في حياة المجتمع المسـلم الذي ظل متماسك التركيب الاجتماعي الموحد، حتى فرَّق الترف المترهل كلمتـه، وأحالـه إلى أشـلاء ممزقـة الأديـم، تحـت عنوانات من الحاكمية الذليلة المزيفة، المختلفة الوسائل والأهداف.

المؤاخاة ممكنة التطبيق إذا خلصت النوايا:

والمؤاخـاة بنوعيها الفردي والجماعي ممكنة التطبيق العملي فـي كل وطـن من أوطان المجتمـع المسـلم - إذا صدقت العزائم والإرادات، وخلصت النيات عند الحاكمين والقادة.

ففـي التقسـيمات الإدارية فـي كل وطن مسـلم مندوحة للبدء بالمؤاخـاة بنوعيهـا متدرجـة مـن المجتمعـات الصغيـرة إلـى

المجتمعات الكبيرة، وفي كثرة المساجد المدرسية فسحة لتطبيق منهج المؤاخاة، وفي كل مدرسة ومعهد وجامعة مجال لوضع المؤاخاة موضعها من الطبيق، وفي المصانع أوسع آفاق لجعل المؤاخاة حقيقة من حقائق العلم والعمل، وفي المزارع الجماعية ونقابات الطوائف المختلفة باختلاف الطوائف والفئات، وفي دواوين الحكومة ومصالحها وطوائف موظفيها، وفي المجتمعات السكنية، وفي كل مجتمع نقابي فرصة لتطبيق المؤاخاة تطبيقًا عمليًا متدرجًا. وبالجملة في كل مكان تجتمع فيه طائفة من المجتمع المسلم تحت عنوان خاص بهم يمكن أن تتحقق المؤاخاة بنوعيها الفردي الذي يقوم على الصداقة، والجماعي التكافلي التكليفي الذي يؤديه ما تؤديه الجمعيات التعاونية الحرّة التي لا تسيطر عليها الرسميات والدعايات الجوفاء والاستغلال المغرض.

ولنضرب مثلًا عمليًا نوضح به إمكان تحقيق المؤاخاة بنوعيها اللذين عقدهما رسول الله ﷺ بين أفراد وجماعات المجتمع المسلم، فجعلت منه مجتمعًا متعاطفًا بالحب، متعاونًا بالتكافل، قويًا بالوحدة.

أساس عملي يمكن أن تبدأ منه المؤاخاة:

في كل وطن إسلامي -تقريبًا- موحَّد الحكم، يوجد نوع من المدارس له خصائصه التي تميزه على سائر مدارس ومعاهد التعليم، ذلك النوع من المدارس هو المدارس (النموذجية) التي يوضع لها برنامج دراسي تربوي خاص في مواده العلمية ووسائل التربية الفكرية والبدنية، وساعات العمل، ونظام الامتحان، بل في الزي المدرسي واختيار تلاميذه، وتحديد عددهم في فصول الدراسة، وانتقاء المدرسين والمربين من الممتازين خلقيًا وتربويًا وسلوكيًا.

فهل يعسُر في مثل هذا النوع من المدارس في نظامها (النموذجي) تطبيق مبدأ المؤاخاة بين تلاميذ كل مدرسة (نموذجية)، حيث تتوافر أسباب وشرائط المؤاخاة الفردية والجماعية، لا سيما إذا كان القائم على إدارة المدرسة رجلًا من رجالات التربية الممتازين بالحمية الإيمانية، ورسوخ اليقين، والتقوى الإيجابية، وحب الدين، والرغبة في إعلاء كلمة الله.

إن ذلك لا يعسر إذا صدقت العزائم وصحّت الإرادة، وتربية الأمم لا تُقاس بالسنين والأعوام، وإنما تُقاس بما يقع في الزمن من الأعمال، فإذا صحّت عزيمة أمة من أمم الإسلام واتجهت إلى

تحقيــق لون مــن التربية يحقق المحبة والإخاء بين جميع أســاتذة وتلاميــذ كل مدرســة من هذا النــوع النموذجي - سَــهُل عليها أن تطبــق نظــام المؤاخــاة التي قام عليهــا بناء المجتمع المســلم في نشأته، ومستقبل حياته، دون أن يعوقها عائق.

والمصلحون لا يحسبون للزمن حسابًا في تحقيق ما تصبو إليه أنفســهم من إصلاح أممهم وشعوبهم ما داموا قائمين على الطريق السوي الذي يفضي بأممهم وشعوبهم إلى أهدافهم الإصلاحية ولو مرّ من الزمن الكثير.

والأمــر لا يحتــاج إلا إلى نوع من الإقــدام المؤمن بالفكرة، لأن الإيمــان قوة لها أثــر عظيم في دفــع عجلة الإصلاح إلــى النهوض والتقدم للوصول إلى الهدف.

فلنجــرب، ولنبــدأ ونتحــرك إلى العمــل، والله تعالــى من وراء القصد، ولتكن (نموذجية) المدرســة وتوافر وسائل التربية فيها إلى جانب وســائل التعليم قائمة على تحقيــق نظرية المؤاخاة في تدرج متثبت، وليكن برنامج هذه المدارس (النموذجية) قائمًا في حياة المجتمع المســلم على الروح الإسلامية الخالصة، والإسلام لا يرفــض العلــم ولا التربية التــي تحقق للأمة إصلاحًــا ينهض بها لتأخذ مكانها في ركب الحياة المتحضرة النظيفة.

والزمن لا يتوقف عن السير، والشمس لا تتوقف عن الدوران، فعلى الذين يريدون الإصلاح للمجتمع المسلم على النهج الذي أقامه عليه رسول الله ﷺ أن يسابقوا الزمن ليأخذوا منه قبل أن يأخذ منهم.

فحيَّ على الفلاح يا مَن بيدكم زمام قيادة المجتمع المسلم، وانهضوا للعمل، وارتقبوا فضل الله، فإنه قريب مجيب، وهي تجربة لا تضر إن لم تنفع، ولن تغير من الوضع (النموذجي) القائم شيئًا، سوى أنها توجهه وجهة إصلاحية مسلمة.

فإذا نجح هذا الاتجاه التربوي المسلم ـ وهو ناجح بعون الله ـ إذا أخذت بزمامه يدٌ مطهّرة من رجس التعبد للبرامج والمناهج المستوردة التقليدية، ونفس متحررة من العبودية للدنيا ورغائبها أمكن التوسع فيه بنقله إلى المرافق الأخرى المتميزة بخصائصها كالمعاهد والجامعات في قطاع العلم والتربية، وإلى النقابات والمصانع في قطاع التجمعات العاملة، وكلما كان العدد محصورًا كان النجاح مؤملًا مرجوًا.

نظام المؤاخاة الاجتماعية يؤدي للدولة حكما مستقرا:

ولا يغيبن عن تفكير الحاكمين في أوطان الإسلام أن نظام المؤاخاة يفرز العناصر الفاسدة ويميزها عن المجتمع المسلم

ليكون معهم التعامل بما يتلاقى مع سلوكهم الاجتماعى، ويعطون قدرًا من العناية التربوية لإصلاحهم، وردِّهم إلى صفوف مجتمعهم حتى يندمجوا فيه اندماجًا يجعلهم أعضاء صالحين مصلحين، كما تضمن المؤاخاة للحاكمين والقادة في المجتمع المسلم حكمًا مستقرًا، يشعُّ في جنباته الأمن والجدّ والعمل المستهدف عزة المجتمع المسلم وسعادته، والحب المبدِّد للأحقاد والضغائن، ويغرس في النفوس روح التنافس المؤمن، والغَيْرة المتسابقة إلى الخير والهدى، ويقوِّي عوامل الحرص على ازدياد قوى المجتمع المسلم -الروحية والمادية والفكرية- ويحرِّر المجتمع المسلم من عبودية التبعية بأغطية السياسة الماكرة الخادعة، ويفتح أمام مفكِّري المجتمع المسلم مجالات العلم والمعرفة الفسيحة والتفكير في استخدام الطبيعة وعناصرها الظاهرة والخفية، ومجالات البحث في أسرار الكون ليحقق لمجتمعه مصلحة تدفع إلى التقدم الحضاري العلمي، استجابة إلى ما يدعوه إليه دينه وتربيته الروحية من التطلُّع إلى ما كان له من منزلة في تاريخ القيادة الإنسانية على أسس من العدل والتراحم والمساواة في الحقوق والواجبات ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (الحج: ٤٠، ٤١).

الدعامة الثالثة التي يستند عليها بناء المجتمع المسلم:

الحديث عن الجهاد هنا ليس حديثًا عن مشروعيته، ومراتبه الحجاجية والقتالية، وأحكامه، وأحكام ما ينشأ عنه من أوضاع ونظم في الحياة، فهذا نوع من البحث قد استوفيناه وأشبعنا القول فيه في كتابنا (سماحة الإسلام)، الموسوم بـ(الموسوعة في سماحة الإسلام) إشباعًا أتى في ظننا ـ على جميع ما يدور بخلد الباحثين والمتطلِّعين إلى المعرفة في هذا المجال، أو على الأقل جمع أكثر ما يدور في أذهان المتسائلين عن شرعة الجهاد في الإسلام، وما يتبعها من نظم اجتماعية وأحكام تشريعية، يتوقف عندها منكرًا أو متنكرًا بعضُ مَن لم يدرس الإسلام خاصة، ومن لم يدرس تاريخ الرسالات الإلَهية عامّة، بل بعض مَن لم يعرف شيئًا عن تاريخ البشرية الاجتماعي في تزاحمها على رغائب الحياة التي تدفع إلى التكالب عليها الميولُ الغريزية عند الأفراد والجماعات مما لم يُخْلِ الحياة من تهارش وتقاتل على طول تاريخها المديد، الذي لا تعرف له بدءًا ولا تعرف له نهاية.

وقـد كانت الرســالات الإلَهية في أدوارهـا المختلفة وأطوارها المتفاوتـة هـي العصا التـي يهش بهـا المصلحـون ليتخففوا من عنفوان التهارش البشري في سبيل تحقيق الرغائب الاستئثارية.

التاريخ البشري شاهد صدق:

والتاريـخ البشـري لا يسـتطيع أن يضـع يده علـى مرحلة من مراحـل الحيـاة الإنسـانية فيزعم أنهـا مرحلة خلت مـن تهارش وتقاتل، والحاضرُ شـاهد على الماضي، وهو في بلوغه من الرشد الحضـاري، وارتقائه في مـدارج الحضارة الفكريـة والاجتماعية، أعدلُ شـاهد على ما كان يسود تاريخ الحياة من سطوات التوحش والهمجيـة فـي التدميـر والتخريـب، وسـفك الدمـاء، والفتـك بـالأرواح والتغالب والتظالـم، والأثرة الذاتية التي تسـوق الحياة بسياط البغي والقهر والقوة المادية الظالمة في صورها المختلفة، ومظاهرهـا التـي لا تقـف عند حصر، لا سـيما فيمـا أنتجه العلم المادي التجريبي المظلم من وسـائل الإهلاك والإفسـاد والتدمير والتخريـب في هـذا العصر الذي غلـب فيه الإلحـاد المادي على المبادئ الروحية، والتربية السلوكية الخلقية، ففرض على الحياة سـيطرته وسـلطانه، ولم يترك للروحانية الهادية إلا منابر الكلام الأجـوف الذي لا يُحْلي ولا يُمر، ولا ينفع ولا يضر، وإنما هو لون

من التنافس الدعائي، يُقصَد به أكثر ما يقصد خداع الشعوب عن حاضرها الذليل.

رسالة الإسلام هي العدو الأول للإلحاد والوثنية المادية:

وهذا الإلحاد المادي الظلوم لا يرى له اليوم عدوًا في الحياة إلا رسالة الإسلام التي رفعت راية التوحيد، وهو متفرغ لمحاربة هذه الرسالة الخاتمة الخالدة، لا يشغله عنها شاغل، لأنه فرغ من القضاء على بقايا الخرافات والأساطير المتخلفة من حطام الرسالات التي سبقت رسالة الإسلام، أو هو على الحقيقة لم يجد أمامه إلا شيئًا من حطام بالٍ من بقايا آثار باهتة، قال عنها أصحابها: إنها آثار رسالات سابقة، وما هي من الله في شيء.

وقد استطاع هذا الإلحاد المادي أن يحتاز عواطف الشباب في دنيا الناس، ويملك قلوبهم بما فجّر فيهم من شهوات جامحة أتاح لها جميع أسباب الانطلاق، ومكّنها من الإشباع المنهوم بالرغائب الشهوية في بيئات لا تعرف للأخلاق منزلة.

ومن فجور هذا الإلحاد المادي الجموح أنه صب إفساده المادي في قوالب متفلسفة، ليوهم العقول أن فجوره علم، وأن جموحه معرفة وفلسفة، وهو يدور مع هذه النحل المتفلسفة في

حلقة مفرغة كما تدور أحْمرة الطحانين بالرحى[٢٠]، وهي تطحن الحصى، ولا يُدرى متى تنتهي من هذا الدوران، ليترك العقول تعود إلى الله وتشهد من الكون وجهه المضيء بالأسرار الإلَهية وإشراق الطبيعة بنور الهداية لتعرف الله بإنعامه وسابغ إحسانه، وكمال جلاله في وحدانية لا تقبل الإشراك.

وعودةُ شباب الإنسانية، لا سيما شباب المجتمع المسلم إلى معرفة الله والإيمان به وبرسالته الخاتمة الخالدة المنزّلة على خاتم النبيين محمد ﷺ هي المنقذ الوحيد للحياة مما ارتطمت به وهي تنحدر في هاوية الانحلال الخلقي إلى غير قرار، وهذا الإنقاذ واجب المجتمع المسلم في إعادة تصحيح تركيبه الاجتماعي من جديد، بتجديد ما رثّ من وحدة المؤاخاة بين أمم هذا المجتمع وشعوبه في جميع أوطانه ليتوحّد في ظلالها مرة أخرى، حتى يستطيع هذا المجتمع المسلم أن يأخذ مرة أخرى بزمام القيادة الإنسانية بروحانية رسالته حتى يعيدها إلى مستقرها من الهداية والإصلاح.

إبراز مواقف المؤاخاة في مسيرة المجتمع المسلم:

وإنما المقصود من الحديث عن الجهاد هنا نمط آخر من البحث، نقصد به أن نبرز مواقف المؤاخاة الحُبية، والمؤاخاة

---

(٢٠) أحمرة: جمع حمار (المجلة).

الاجتماعية التكافلية التي جعلها رسول الله ﷺ أساس منهجه في تربية مجتمعه المسلم، وجعل من مجتمعه المسلم المتآخي قوّة موحّدة قادت الإنسانية في مسيرتها الحضارية الهادية المصلحة إلى آفاق الإيمان والإخاء والحب، وقد عرفت في قيادته لها يوم أن أخذ بزمامها العدل والمساواة في الحقوق والواجبات، وعرفت الإنسانية من هذه القيادة التراحم والتعاطف والتوادد، وعرفت في هذه القيادة التواسي والترافق، بل عرفت في قيادته الإيثار الذي أذاب (الأنانية) وحب الذات، وجعل من المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي أمة واحدة دون الناس، فهو يتحرك بهذه الوحدة إلى أهدافه متذرعًا إليها بأنظف الوسائل العملية الجادة، حتى تحققت له هذه الأهداف وهو معتصم بوحدته الأخوية لا يريم عنها ولا يفرِّط فيها.

أثر ضياع المؤاخاة من منهج المجتمع المسلم:

فلما مالت شمس المؤاخاة التكافلية عن آفاق هذا المجتمع المسلم، وداخلته في حياته مطامع الرغائب الشخصية تفرقت وحدته الاجتماعية، وهوت منزلته القيادية في المجتمع الإنساني، وماجت به زعازع الفتن القواصم الموبقة وألقته في مهاوي التبعية، فاستذلّ ومزِّق أديمه، وصار أشلاء في أوطانه، تحكمه جراثيم القوميات المغرقة في عتو الكفر الوثني، ووريثة الإلحاد المادي

المتلـوِّن مع تقلبات الحياة، فلا يبالي في تقلباته أن يكون شـركًا غبيًـا يتعبد للأحجار والحيوان، انسـلاخًا من إنسـانية، ولا يبالي أن يكون فلسـفة فكرية ماجنة، ولا يبالـي أن يكون نحلة منحرفة فاجرة، ولا يبالي أن يكون زندقة منافقة، ولا يبالي أن يكون أكذوبة متعالمة، ولا يبالي أن يكون سياسة غادرة خائنة.

فهذا الإلحادُ الذي يغلِّـف القوميات العنصريه بأغلفة التمويه والأباطيـل الادّعائية، ثم تضفي عليها الحضـارات الماجنة صورًا متشـابهة في إطار الحياة الاجتماعية التي تحياها الأمم والشعوب في أوطانها المتشبعة بعصارات التحلل الخلقي والفجور الشهوي، ثـم يصنع الفـراغ الروحـي فـي الأفـراد والجماعـات، والضياع الاجتماعي في الأمم والشعوب من الإلحاد علمًا ومعرفة وفلسفة.

وقد يندّ عن هـذا التصوير -قليلًا- العلمُ التجريبي القائم على المشـاهدة التجريبية لأن بعض علماء التجارب الطبيعية ـ وهم قلّة إلـى جانب المتفلسـفة النظرييـن ـ ينظر أكثر ما ينظـر إلى نتائج التجارب، وما تؤدي إليه، أو ما يمكن أن يستخلص منها من عمل صناعي في استحداث أدوات وآلات تؤدي عملًا في الحياة.

فهؤلاء العلماء التجريبيون في عمل مع تجاربهم يلاحقونها في مراحلها المختلفة حتى يصلوا بها إلى شيء، قد يكون هو الهدف من التجربة وربما كان شيئًا آخر، يفتح بابًا لتجارب أخرى.

فليــس عند هؤلاء العلمــاء التجريبيين فراغ فكــري، كالفراغ المســتحوذ على عقول المتفلسفة النظريين، فحوَّلهم هذا الفراغ إلــى ملاحدة يتعالمون، ولكن الذي عند العلماء التجريبيين تخمة فكرية مادية، وضياع روحي يغطي على أفئدتهم، فيفرحون بما أتوا من التجارب ونتائجها، ويحبّون أن يُحمدوا بما صادفوا، فيشغلهم ذلك عن الالتفات إلــى التفكير في آيات الله الكونية، ودلائل هذه التجــارب، ومنابعها الغيبية الروحية جمودًا مــع المظاهر المادية للتجربــة، فكانوا بغفلتهم عن التفكير في آيــات ربهم، وهي بين أيديهــم، تنادي بوجــود الله وعظمة اقتــداره، وحكمة تدبيره، من ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ (الكهف: ١٠٤، ١٠٥).

وليــس معنــى أن التجربة العلمية في مظاهــر الطبيعة يمكن أن يســتخلص منهــا عمل آلي أو أدوات ينتفع بهــا، أن التجربة كاملةُ الصحــة، لاحتمــال أن تكــون هنــاك عناصــر خفية غير مشــهودة لهــا مدخل في اســتخلاص نتائج التجربة، وهذا هــو مظهر الغفلة والفــراغ القلبي الذي حجــب تفكير هؤلاء العلمــاء عن النظر في آيات الله الكونية التي لو أتيح لهم أن ينظروا فيها لأخذت بأيديهم

إلى هدى الله، فكانوا أوزن إيمانا وأرجح يقينًا من العلماء النظريين المؤمنين بقوة براهين المنطق النظري.

وهذه العناصر الخفية التي قد يكون لها مدخل في استخلاص نتائج التجربة ولم تظهر لتوّها قد تعرف فيما يُستَقبل من البحث، وقد تسوق إليها المصادفة البحتة التي كثيرًا ما تدخلت في عظائم المخترعات التجريبية.

والإلحاد المادي بمساعدة نتائج العلم التجريبي باعد بين التفكير الإنساني وبين الإيمان بالله ورسالاته التي قامت مناهجها الاجتماعية والتربوية في المجتمع المسلم على المؤاخاة التي زاوجت بين إشراق الروح وومضات الفكر، فلم تغفل إشراقات الروح بنور الهداية الإيمانية، ولم تهمل عمل الفكر في خوضه غمرات العلم التجريبي، بل جعلت منهما حقيقة واحدة، تعيش متآخية مع نور الهداية الإلَهية ومع وثبات الفكر في تعرّفه على عناصر الطبيعة وأسرار الكون المسخرة للإنسان، ليستخلص منها ما أودع الله فيها من آيات ودلائل تهدي إليه عز شأنه، وتدل على اقتداره ومحكم تدبيره، ولينتفع الإنسان منها في حياته الروحية والمادية على سواء.

منهج المجتمع المسلم يوجب عليه أن يخوض لجة العلوم الطبيعية:

فمناهج رسالة المجتمع المسلم القائمة على دعائم المؤاخاة التكافلية التكليفية بين أفراد وجماعات وأمم وشعوب هذا المجتمع المسلم تتطلب من هذا المجتمع بعد أن يهبَّ من رقدته المتطاولة، فيصحح مرة أخرى تركيبه الاجتماعي إلى تركيب متآخٍ تآخيًا تمازجيًا في منهجه العلمي، وتربيته السلوكية المتكافلة لتحقيق هدف رسالته التي قامت على دعائم المؤاخاة - أن يتبنى[٢١] بمقتضى مناهجه الفكرية منهج العلم التجريبي ليجعل من هذا المنهج الفكري التجريبي نقطة انطلاق للفكر المسلم في ظل الهداية الإيمانية، بعد أن طال تمرغ هذا العلم الشريف في أوحال الإلحاد المادي، معاديًا للهداية الروحانية الإيمانية.

وهذا التبني - وكثير من إمكانياته متوافر لدى أمم المجتمع المسلم في هذا العصر - هو في الحقيقة أعظم ما يقوم به المجتمع المسلم لتحقيق أهدافه الإيمانية الحضارية في هذا العصر، وهو أعظم ما يستطيع أن يقدِّمه المجتمع المسلم للإنسانية في تصحيح مسيرتها الفكرية نحو إنشاء حضارة مؤمنة، تقوم على

(٢١) هذا هو مفعول (تتطلب) الواردة في السطر الثالث من هذه الفقرة (المجلة).

دعائم العلم المؤمن، والمعرفة المرتوية من نمير الروحانية المشرقة بنور الهداية الإلَهية في رسالة المجتمع المسلم.

لأن العلم ـ كل العلم ـ في ظل الهداية الإيمانية هو الهدف الأعظم لرسالة المجتمع المسلم، الذي يجب عليه أن يعمل متآخيًا بكل ما أوتي من قوة روحانية ومادية على تحقيقه، لتتذوق الإنسانية طعم السعادة الاجتماعية المتآخية في ظل هذا الهدف العظيم.

وهذه ليست أحلام يقظة، ولا أماني متمن، يحوكها الخيال المتفائل، ولكنها حقائق فكرية، يمكن ـ إذا صدقت عزائم من بيدهم مقاليد المجتمع المسلم، وعندهم وسائل تمكينه من خوض غمرات العلم الطبيعي وتجاربه في جامعات المجتمع المسلم ومراكز بحوثه ـ أن تصبح بالعمل الجاد، والبذل في سبيل الله حقائق واقعية، تعيد إلى هذا المجتمع عزته التاريخية.

وكفى ما كان من كلام وتشادق، ودعايات، وشعارات، وخطب، ومواعظ مكرورة، وليبدأ قادة المجتمع المسلم في العمل، وليتحرك مفكرو هذا المجتمع في هدوء يبدأ من (الصفر) كما يقولون.

فإن الوصول إلى النقطة الأولى من خط السـير في سبيل العمل الجـاد لتصحيح تركيب المجتمع المسـلم، وتمكيـن أقدامه في مواطئهـا عمـل ضخم لا يسـتهان به، لأنـه عمل يضـع المجتمع المسـلم مرة أخرى على الطريق المسـتقيم فـي تصحيح تركيبه، ويريه معالم الطريق حتى لا يضل عن سـمعته ووجهته، والانتقال في العمل من أول نقطة في خط إلى النقطة التي تليها في هذا الخط خطوة لا يضبطها القياس الزمني، لأنها في حياة الأمم والمجتمعات الإنسانية أجل من مقاييس الزمن، وقد تكون في حصيلتها العملية ممـا لا يقع تحت الرؤية المشـبعة للرغائب العاليـة، ولكنها بما يتم فيها من أثر عملي مرسـوم تنبئ عن نفسـها، وتنبئ عما فيها من حركات إيجابية تضفي على حياة المجتمع قوة تنعشـه للسير قدمًا.

وقـد بينا بالتفصيل الممحّص للوقائـع والأحداث أن المؤاخاة التـي عقدهـا رسـول الله ﷺ بنوعيهـا الطليعـي الفـردي القائـم على أسـاس الحب فـي الله والحب لله بيـن كل متآخيين من طلائع المجتمع المسـلم بالمدينة المنورة من المهاجرين والأنصار، هذا الحب الذي كان فيه كل مهاجري أخًا لأنصاري.

وقـد تمَّ هـذا النوع الطليعي مـن المؤاخاة، وربَا واسـتعمق في القلـوب والأرواح والعقول والأفئدة حتى امتزجت فيه عناصر هذا

المجتمع المحصور بمن كان قد وصل إلى المدينة من المهاجرين وأمثالهم من الأنصار، فكانوا وحدة امتزاجية ذابت في مزجها خصائص الذوات والأشخاص، وذهبت بها الفواصل بين الأفراد، حتى انتهت هذه الوحدة إلى الإيثار، وتسنمت ذرا الإيمان، الذي جعل منها قوة روحية استعصت على المكايد، وتخطت أعتى العقبات، وتسامت في إيمانها إلى قمة الحب في الله، الذي أقام رسول الله ﷺ دعائمه على المؤاخاة الفردية فتآخوا في الله أخوين، أخوين، كما قال لهم رسول الله ﷺ، ثم جاءت المؤاخاة الاجتماعية التكافلية بين جماعات المجتمع المسلم الذي كثر عدده، فكانت دستورًا منهجيًا في حياة هذا المجتمع الذي سما به إلى آفاق القيادة الإنسانية، بل جعله في وحدته آية من آيات الإعجاز الاجتماعي في حياة الناس عامة، وحياة المجتمع المسلم خاصة، لأن وحدة التآخي التي كانت تربط عناصر المجتمع المسلم بعضها ببعض لم يعرفها تاريخ البشرية لغير هذا المجتمع.

وإذا كان نوع المؤاخاة الطليعي بين أفراد المجتمع المسلم قد قام على أساس الحب في الله الذي بلغ به إلى خصيصة الإيثار، فقد كان النوع الجماعي من المؤاخاة قائمًا على أساس التكافل الاجتماعي التكليفي الملزم بمقتضى الدستور الذي أمر رسول الله ﷺ بكتابته بين عناصر المجتمع المسلم من المؤمنين والمسلمين

من قريــش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، فجعلهم أمــة واحدة دون الناس، يتكاثرون في ظلــه، ويزدادون عددًا وعدة وقــوة تحــت ســلطانه، ضابطًا لأعمالهــم وتحركاتهــم، مصححًا تركيب مجتمعهم، راســمًا لهم منهج الســير في مستقبل حياتهم فــي حربهم وســلمهم، مما حقق لهم وحــدة اجتماعية جعلت من المجتمع المســلم قوة روحية، ومادية، وفكرية وتربوية وسلوكية مرهوبــة الجانــب بين مجتمعــات أخــلاط المدينــة المتنافرة في أهدافهــا ووســائل حياتهــا المترهلة في تماســكها، المســترخية فــي حركاتها، بــل بين ســائر مجتمعات طواغيت الشــرك وعبيد الوثنية، المتربصة بالمجتمع المســلم، تبغيه الغوائل، وتحوك له نسائج الفتن القواصم، لتفرق عواصم تَجَمُّعِه وتآخيه.

لماذا كانت المؤاخاة أول عمل في منهج التربية النبوية؟

وقــد كانــت هــذه المؤاخــاة أول عمــل قــام به رســول الله ﷺ فــي منهجه التربــوي الاجتماعي الــذي أقام على قواعــده تركيب مجتمعــه ليعده لمواجهة الحياة في ســيره بدعوتــه إلى الله تعالى، وتبليغ رســالته إلــى الناس كافة، مما جعله عرضــة لمكايد أعدائه في الداخل من شــراذم اليهود الحانقين، ومن طواغيت الشرك في الخارج وعلى رأسهم ملأ الكفر والفجور في مكة ومن يتعصب لها ممن حولها من قبائل الشرك والوثنية.

فأبانت هذه المؤاخاة عن براعة الحكمة السياسية التي انتهجها رسـول الله ﷺ في تحركه الإيجابي بمجتمعه بعد الهجرة، ليفتح بهـا الطريق أمام مسـيرة رسـالته، تقديرًا منه ﷺ لمـا ينتظر هذه المسـيرة من عقبات كأداء، وعوائق صماء، وأزمات شداد، ومكر وخديعة، وتألبات متكالبة ضد مجتمعه المسـلم، مما يتطلب منه استعدادًا روحيًا وماديًـا يصب في قالبه المجتمع المسـلم وحدة قويـة النسـج، لا تنفصم عراهـا، يخوض غمرات الجهاد بسـلاح الإيمان وقـوة المؤاخاة المتكافلة بروح فدائية تحب الاستشـهاد في سـبيل الله أشـد مما يحب أعداؤها الحياة، لا تبالي في جهادها أجاءها النصر متنزلًا من سـماء العـزة، أم لقيها الموت في حياض الجهاد، وهي تتغنى بقول قائلها:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا
على أي جنب كان في الله مصرعي

وقد صـدق تقدير رسـول الله ﷺ، وبدأ اليهـود، وهم الأعداء الداخليون، الذين لا يشفي صدورهم من الغل والحقد والحسد إلا أن يروا المجتمع المسـلم محاطًـا بأعدائه من كل جانب، مأخوذًا بسـيوف أولئك الأعـداء - يفكرون ويقدرون ويرسـمون الخطط لاسـتئصال هذا المجتمع الذي يقرءون في لوح الحياة أن نهايتهم سـتكون على يديه إذا لم تخلُ الحياة من وجوده، وانتشار دعوته،

واندفاع رسالته في سيرها إلى المجتمع الإنساني في أقطار الأرض، فتفقأت بيضة مكرهم في الداخل عن فرخ النفاق الخبيث، يدبِّرون له الأكاذيب، ويخترعون لـه الأراجيف ليفتوا في أعضاد الضعفاء من حدثاء الإيمان الذين تتنور قلوبهم بنور الإيمان، وهم سماعون لهـم، ثم طار خبثاء اليهـود إلى ملأ قريش، يثيرون حفائظهم على المجتمع المسلم، ويشـعلون في أكبادهم حرائق الغيظ الكظيم، ليجمعوهم لحرب المجتمع المسـلم إرادة اسـتئصاله، ولكن هذا المجتمع المسلم كان قد استكمل بناءه المتآخي، فوقف أمام هذه التألبات المتكالبة المتهاوية وقفة الجحفل[٢٢] المتشـامخ بقوته الإيمانيـة ووحدته الاجتماعية، متماسـك التركيـب المتآخي في قلة عدده، وقوة شـوكته، ورسوخ يقينه، واستعداده لتحمل أقسى صنوف البلاء في سـبيل تحقيق أهدافه التي نصب نفسـه منارًا لها يهتدي بها السائرون في دياجي الحياة، وهم يسمعون صوت الحق يناديهـم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٧٦).

وفي هذه الآيـة الكريمة توجيه للمجتمع المسـلم في جهاده، خرج في أسـلوبه مخرج المدح والثنـاء والترغيب المحرض على

(٢٢) الجحفل: الجيش (المجلة).

الجهاد ؛ لأن هذا المجتمع بمقتضى ما أحدثته المؤاخاة التكافلية في كيانه من امتزاج جعل قوته في وحدته الإيمانية، تلك الوحدة التي تستهدف نشر الإيمان بالجهاد الحجاجي البرهاني والجهاد القتالي المزيل للعقبات من طريق تبليغ الرسالة، ونشر الدعوة لإعلاء كلمة الله.

فجهاد المجتمع المسلم جهاد مستهدف، يقصد إلى تحقيق أعظم هدف في الحياة ليسعد بهذا التحقيق في الدنيا بالعزة والنصر المؤزر، وفي الآخرة بنعيم الشهداء الذي لا يعدله نعيم، وفي إسعاد هذا المجتمع إسعاد للإنسانية كلها، بما تحظى به من الأمن في ظل العدل والمساواة الأخوية في الحقوق والواجبات.

أما أعداء المجتمع المسلم فإنهم يقاتلون لغير هدف، سوى شفاء غل صدورهم بما يسفكون من دماء الأبرياء الهداة الذين يدعونهم إلى توحيد الله، وخلع عبادة الأوثان، ليحرروهم من ربقة العبودية لغير الله تعالى بالشرك الموبق، والإلحاد الفاجر، والوثنية الزرية، ويدخلوهم معهم في ساحة الإيمان إخوة لهم في مجتمع الهداية والخير والحب والإخاء.

وفرق كبير جدًا، بين من يجاهد مستهدفًا أعظم هدف لإسعاد الحياة، يحقق به إعلاء كلمة الله، وبين من يقاتل لغير هدف وإنما يقاتل ويدمر ويخرب عمران الحياة، ويسفك الدماء في

سبيل الطاغوت، انقيادًا لضلالات الشيطان ومكايده، وما كيد الشيطان إلا في ضلال وضياع، لمهانته وضعفه أمام عظمة الله تعالى وقهره، ألا ترى إلى فراره مدبرًا لا يلوي على شيء حين رأى جند الله وهم يثبّتون المؤمنين في مواقف جلاد الكافرين، وهو يقول لأوليائه أعداء الله، إذ يستغيثون به: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ ﴾ - أي من بأس الله وانتقامه وقهره - ﴿ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (الأنفال: ٤٨).

فالمجتمع المسلم يجاهد في سبيل الله وهو متثبت من أمره، راسخ القدم في جولاته، لأن له هدفًا يقصده في جهاده ويجعله نصب عينيه، فإذا تحقق هذا الهدف كف عن القتال، وأخذ بيمينه كتاب الله ينشر هدايته، مبشرًا منذرًا، محببًا الله تعالى إلى خلقه بتذكيره بإنعامه وفضله وإحسانه.

وأما أعداء الله، وأعداء هدايته، أولياء الشيطان فإنهم يقاتلون والأرض تهتز تحت أقدامهم، وقلوبهم واجفة وأبصارهم خاشعة، وعقولهم زائغة، لا تجمعهم غاية، ولا تربطهم وشائج سوى وشائج الحقد على أهل الحق وحملة أمانته من جند الله وكتائب المجتمع المسلم التي تحمل لواء الدعوة إلى الحق والخير.

يقول الزمخشري في تفسير قول الله عز شأنه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الآية: رغب الله المؤمنين ترغيبًا وشجعهم

تشجيعًا بإخبارهم أنهم إنما يقاتلون في سبيل الله، فهو وليهم وناصرهم، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل الشيطان، فلا ولي لهم إلا الشيطان. وكيدُ الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه.

ويقول أبو حيان في تفسيرها: لما أمر الله تعالى المؤمنين أولًا بالنفر إلى الجهاد، ثم ثانيًا بقوله: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ثم ثالثًا على طريق الحث والحض بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ أخبر في هذه الآية بالتقسيم، أن المؤمن هو الذي يقاتل في سبيل الله، وأن الكافر هو الذي يقاتل في سبيل الطاغوت، ليبين للمؤمنين فَرْقَ ما بينهم وبين الكفار، ويقويهم ويشجعهم ويحرضهم، وأن من قاتل في سبيل الله هو الذي يغلب، لأن الله هو وليه وناصره، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب.

ثم قال أبو حيان: وشتان بين عزم يرجع إلى إيمان بالله وبما وعد على الجهاد، وعزمٍ يرجع إلى غرور وأماني كاذبة.

فالمجتمع المسلم يجاهد في سبيل الله صفًا واحدًا، لهدف واحد، لأن المؤاخاة الاجتماعية التكافلية أذابت الفوارق في عناصر تركيبه بوحدة الإيمان، فجعلت منه وحدة في صدق العزيمة التي إذا همت لا تتردد، وإذا أقدمت لا تتراجع، ولكنها تمضي قدمًا إلى قصدها المستهدِف إعلاء كلمة الله، غير مبالية

بما يكون في طريقها من عقبات، مهما كانت تلك العقبات في شدتها وقسوتها، لأن لها من صدق عزيمتها، وقوة إرادتها، وإيمانها بموعود الله ما يفتت جلاميد أعتى العقبات، ويزيل شوامخ رواسيها.

وهذا التوجيه الذي ذكرناه في الآية هو في الواقع ثمرة من ثمرات تربية المؤاخاة التكافلية التي عقدها النبي ﷺ بين أصحابه وسجلها دستورًا ملزمًا في كتابه الذي أمر بكتابته بين جماعات المجتمع المسلم، وهو ﷺ مقدر أصدق التقدير ما ستلقى هذه المؤاخاة في مستقبل المجتمع المسلم من تجمعات متكالبة، تريد القضاء عليه من بين مجتمعاتها التي ضاقت ذرعًا بهذا المجتمع المسلم، وهم يرونه في قلة عدده بالنسبة لأعداد مجتمعاتهم شامخ الذرا، مستصعب المدارج، لا تلين له قناة، ولا تقهر له شوكة، واري الزناد، رفيع العماد، لا يهن ولا يسترخي، متحفزًا للوثبة، لا تزول له قدم، حتى ينكشف له قناع الغيب عن كتائب النصر المبين.

هذا النمط الذي جرينا عليه هنا في البحث لتبيان أن الجهاد في سبيل الله دعامة من أقوى وأعظم الدعائم المنهجية التي يستند عليها بناء المجتمع المسلم، الذي اختارته العناية الإلهية لقيادة الإنسانية في مستقبل حياتها وحياته، إنما قصدنا به تصوير

المنهج التطبيقي للرسالة الخاتمة الخالدة، كما رسمه رسول الله ﷺ ليكون عملًا إيجابيًا في واقع الحياة.

فكما أبرزنا الصورة العملية في بناء المسجد الأعظم بالمدينة المنورة باعتباره نموذجًا لإنشاء المسجد في جميع أوطان الإسلام، وما قدمه ذلك المسجد الأعظم الذي بدأ به رسول الله ﷺ منهجه في تطبيق شرائع رسالته، وما يجب أن يقدمه كل مسجد في أوطان المجتمع المسلم لتحقيق مقاصد إنشاء المسجد في بساطة بنائه، وتوجيه المجتمع المسلم في حياته الفكرية والتربوية والاجتماعية والسلوكية، كما أبرزنا ذلك أبرزنا الصورة المنهجية للمؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ - أولًا - بين أفراد المجتمع المسلم من المهاجرين والأنصار، على الحب في الله، والمؤاخاة فيه، وهو يبني مسجده الأعظم، ثم أبرزنا الصورة العملية للمؤاخاة التكافلية التي عقدها رسول الله ﷺ - ثانيًا - بين جماعات المجتمع المسلم، بعد أن استحكم وجوده، وتزايد عدده، وبدأ تألب أعدائه من أخلاط المجتمع المدني المتنافر في وسائل حياته وأهدافه، والمؤلف من بقايا نفايات الشرك وشراذم اليهود الذين يعيشون على الحقد لهذا المجتمع المسلم والمكر الغادر برسول الله ﷺ، وسجل ﷺ ذلك في كتابه الذي أمر بكتابته ليكون دستورًا تكليفيًا ملزمًا، وأنزل فيه اليهود من عرش غرورهم

الفاجــر إلى مواطئ التبعية لطوائف وجماعات المجتمع المســلم مــن الأنصار، وبيّنا ما كان لهذه المؤاخاة التكافلية من آثار ضخمة في توطيد أقدام المجتمع المســلم على أرضه، التي أصبحت قلعة كتائبه ومستقر دعوته لإعلاء كلمة الله تعالى.

كمــا أبرزنا ذلك كان علينا أن نبرز الصــورة التطبيقية العملية للجهاد في سبيل الله باعتباره دعامة من أعظم دعائم بناء المجتمع المســلم الذي جُعلت المؤاخاة سلاحه الأول الذي يعتمد عليه في جهاده لرد اعتداءات المعتدين، وإزاحة العقبات من طريق مسيرته وهو يدعو إلى الله، ويبلغ رســالته، وينشــر هديه ونوره الذي أنزله على خاتم أنبيائه محمد ﷺ.

وكان علينــا أن نبــرز وشــيجة الجهاد في ســبيل الله بالمؤاخاة التكافلية التي قام على أساسها تصحيح تركيب المجتمع المسلم وكانــت له قوتــه التي يرتجف منها أعــداؤه المتربصون به، وكان علينا أن نبرز الإطار العام لمنهج رســول الله ﷺ العملي في تطبيق منهج التربية لمجتمعه تربية تجعل منه قوة روحية ومادية، موحدة الهدف والوســائل، في مســيرته الداعية إلى الله، ليســتطيع بهذه القــوة الوقوف أمام أعدائه في الداخل والخارج إذا اعترضوا طريقه في نشــر دعوتــه، وحاولوا عرقلتهــا في مســيرتها بإقامة العقبات أمامها.

وهـذا المنهـج التطبيقـي الـذي بـدأ بالمسـجد الأعظـم، ثم بالمؤاخـاة، ثـم بالجهاد مدني النشـأة في تحركـه الإيجابي نحو تصحيح تركيـب المجتمع المسـلم، ليظهر خصائصـه المميزة لحقيقتـه الاجتماعيـة التي يجـب أن يعيش ويحيا بها بين سـائر المجتمعات الإنسـانية التـي كُلِّف أن يوحدها بالإيمـان بالله إلهًا واحدًا، يُخْلَصُ له التعبد في جميع صوره وأشكاله.

وذلـك هو هدف الرسـالة الخاتمـة الخالدة الـذي لا هدف لها سـواه، فإذا تحقق هذا الهدف كانت جميع التشريعات والأحكام التعبديـة والعمليـة الاجتماعيـة والتربويـة السـلوكية منصبّة في قوالبه، ونابعة منه وتابعة له، ومستقاة من أصوله.

وقـد تمّ فـي المرحلة المكية وضـع أصول الوحـدة الإيمانية، وحمَلَهـا طلائعُ الإيمان معهم في هجرتهم إلى دار الإيمان والعمل والتشـريع، وفي تلك المرحلة المكية شُرع جهاد البيان والحجّة، ونزلت سـوره وآياتـه القرآنية لتثْبُتَ بـه أقدام المؤمنيـن، وتقومَ بأدلتـه الحجـةُ على المعانديـن، ويُقْطَـعَ ببراهينه عـذرُ الحيارى المتربصين.

وهـذا النوع من الجهاد البياني هو العمدة في نشـر الدعوة إلى الله وتبليـغ الرسـالة ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ (التوبة: ٦) وفي ذلك احترام

للعقل الإنساني الذي فضّل الله به الإنسان على كثير من خلقه، وفيه تقدير لخطر ذلك العقل، لأنه طريق الوصول للحق إذا أشرقت في آفاقه أنوار الحجة التي لا تعصف به الشبه.

ولا يجوز تخطي هذا الجهاد في المنهج النبوي إلى الجهاد القتالي إلا إذا تبين أنه لم يفلح في تحقيق الغرض من شرعيته التي قوبلت بالعناد المستكبر، والعتو المتجبر، من الذين يخافون أن ينزلهم الإيمان من عروش تعاليهم الوثني الذي يتحكمون به في مصائر الحياة، ويستعبدون بسلطان قهره الضعفاء من الناس، ويستذلُّون بسطوته الفقراء والمعوزين.

وعندئذ يجب على المجتمع المسلم أن يزيح من طريق مسيرته في نشر دعوته كل عقبة تقف أمامها معوِّقة لسيرها بكل ما أوتي من قوة مادية وروحية، ليمضي المجتمع المسلم في طريقه ليحقق هدفه الأعظم، وهو تحرير العقول والأفكار والعزائم من رجس الوثنيات الملحدة، والشرك الغبيّ، والظلم العنيد.

وقد كانت المؤاخاة التكافلية هي القوة الوحيدة التي يملكها المجتمع المسلم، والتي خاض بها غمرات الجهاد فانتصر على أعدائه رغم كثرة أعدادهم الهائلة وقلة عدده بالنسبة إليهم، ورغم تفاوت عُدتهم وعُدته في جميع معاركه معهم، لأن المؤاخاة قوة روحية إرادية لا تهزم، لأن إرادات الأمم وعزائمها لتحقيق أهدافها

النبيلـة في الحياة قـوى روحية لا تنهزم أمام القـوى المادية مهما تكالبت عليها، وقد تقف القوى الروحية لتستجم وتستعد للتحفز فيظـن من لا خبـرة له بإرادات الأمـم أن ذلك حَيْد عـن المعركة، واسترسال في التسليم والاستسلام.

وقـد أراد النبـي ﷺ أن يجعل من قـوة المؤاخـاة التي يملكها المجتمـع المسـلم عملاً إيجابيًـا في تحركه نحـو هدفه، فكلف المجتمع المتآخي وهو في أوج قوة المؤاخاة وعنفوانها حَمْلَ لواء الجهـاد الدفاعي لكل من يتصدَّى لمسـيرة تبليغ الرسـالة ونشـر هدايتها، فحمل هذا المجتمع المتآخي اللواء قويًا بإيمانه ووحدته الاجتماعية، فكانت المؤاخاة قوة مادية إلى جانب قوتها الروحية، فوقفت أمام أعدائها وقفة رَعْبَلت جموعهم[٢٣]، وشتَّتت شملهم، وشرّدت بهم مَنْ خلفهم من المتربِّصين.

والذي يعنينا إبرازه في موضوع بحثنا هنا، هو إعطاء المجتمع المسـلم فـي حاضره صورة منهجيـة لما كان عليه هـذا المجتمع في ماضيه مـن اعتماده على قوة المؤاخـاة الاجتماعية التكافلية، والمؤاخـاة الفردية القائمة على التآخي فـي الله، ليتبين المجتمع المسـلم فـي حاضـره الضعيـف أن ما كان لـه من قوة فـي ماضيه

(٢٣) يقولون رعْبَلَ اللحم: قطعه قطعا صغارا (المجلة).

الأصيل هو الذي يجب أن يكون قوته في حاضره، لينهض على أساسه إلى إعادة تصحيح تركيبه الاجتماعي على أساس الوحدة المتآخية في الله، المتكافلة في حياته الاجتماعية، مع الأخذ في أسباب إعداد القوة السلاحية بكل ما يستطيع المجتمع المسلم من إعداد بالوسائل المتاحة له، وهي كثيرة تعطيه القدرة على تملك صنوف الأسلحة التي يملكها أعداؤه، وتعطيه القدرة على التدريب على صنعها واستعمالها، لأن المؤاخاة - في هذا العصر الوثني الملحد - بغير قوة سلاحية قليلة الجدوى، والله تعالى يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠).

المؤاخاة بغير السلاح الملائم عديمة الجدوى:

والسلاح بغير قوة المؤاخاة ووحدة المجتمع المسلم التكافلية عديم الفائدة، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ (آل عمران: ١٠٣) ويقول جل شأنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ

مَّرۡصُوصٞ ﴾ (الصف : ٤) ومعنى ذلك أن الله تعالى يحب من عباده المؤمنين المتآخين فيه، الذين استوت نياتهم في الثبات، وتوحّدت إرادتهم في الجهاد لإعلاء كلمته أن يكونوا في تآخيهم واجتماع كلمتهم وتماسك وشائجهم كالبنيان المرصوصة لبناته رصًا يجعله وحدة متماسكة، يأخذ بعضُها بجوانب بعض حتى كأنه لبنة واحدة.

وإنما سيق هذا المعنى في معرض القتال، لأن القتال مظنّة الرهبة والفرقة، فإذا كانوا في مجاله على هذا الوصف في الوحدة والتماسك كانوا في غيره أشد تماسكًا وأقوى وحدة، وهذا المعنى يجب السير إليه في فهم الآية، لتغير المواقف في الحروب، وتغير وسائلها وميادينها.

فالمجتمع المسلم يواجه اليوم في حياته الحاضرة مجتمعات متنافرة، متخالفة، تحيا حياة فردية، لا يربط الفرد فيها بمجتمعه إلا مجرد نسبته إليه نسبة جغرافية أو سياسية، ولا يربط المجتمع فيها بأفراده إلا سجلات المواليد والموتى، فهي مجتمعات يعيش أفرادها عيشة متباعدة، كل فرد فيها يعيش لنفسه ليحقق لها رغائبها، ويدفع عنها ما يضرها، ويجلب إليها ما ينفعها، ولا يبالي إن كان ما ينفع نفسه يضر غيره من مجتمعه، أو ينفعه، فهو يعيش لذاته ومنافعه.

وهـذه المجتمعات في تنافرها أهدافًـا وتخالفها رغائب، تقف من المجتمع المسـلم مواقـف مختلفة، تمليهـا عليها مصالحها الذاتية، ممثلة في مصلحة الأفراد الشـخصية أو التكتّليّة الطائفية الموحـدة ظاهرًا فـي الاتجاه إلـى هدف مصلحي ذاتي شـخصي، يجعل من كل طائفة فردًا في صورة جماعة أو جماعة في رغبة فرد.

بيـد أن المنهـج الاجتماعـي للمجتمـع المسـلم يجعـل منـه مجتمعًـا تذوب فيه رغائب الأفراد الذاتية إذا تعارضت مع مصلحة المجتمع، ولكن شـخصية الفرد فيه لا تذوب في غمار المجتمع، فالفرد في المجتمع المسلم مرتبط بمجتمعه أقوى ارتباط، يرتفع به إلى ذروة المؤاخاة التي يحب فيها الفرد لغيره ما يحب لنفسه، فلا يسـتجلب لنفسـه نفعًا على حسـاب ضرر غيره، ولا يدرأ عن نفسه ضررًا إلا إذا استوثق أنه لا يمنع نفعًا لغيره.

فالمنهج الاجتماعي للمجتمع المسـلم الذي وضعه رسول الله ﷺ ليكـون نبراسًـا للمجتمع في مسـيرته، يجعـل الفرد في هذا المجتمع يعيـش في موازنة اختيارية إراديّة بيـن نفعه ونفع غيره، وضـرره وضرر غيره، وهـذا بالنظر للفرد باعتباره كيانًا مسـتقلاً بشـخصيته في المجتمـع لا يذوب في غمـرات المجتمع، أما من الناحيـة الجماعيـة فالفـرد بالنسـبة للمجتمع يجـب أن يضحي بمصلحتـه الذاتية في سـبيل تحقيـق مصلحة المجتمـع، وفقهاء

الإسـلام يقـرّرون : إذا تتّـرس العدو بمسـلم أو جماعة مسـلمة لا يمكـن التغلب عليه إلا بقتلها جـاز قتلها للتوصل إلى كبح جماح العـدو ، وعدم تسـليطه علـى بيضة المسـلمين ، وقـد يجب قتل الترس المسـلم إذا كان الضرر الـذي يترتب على عدم قتله أفحش من الضرر الذي يترتب على قتله .

والمنهـج الاجتماعـي للمجتمـع المسـلم يقـرر أن مصلحـة المجتمـع بمقتضى منهجه الإيمانـي في المؤاخـاة التكافلية هي مصلحـة كل فرد فيه ، فإذا ضحّى الفـرد برغبته الفردية ومصلحته الشخصية لأجل مصلحة المجتمع فهو في الواقع إنما يضحِّي لأجل مصلحتـه باعتباره عنصرًا من عناصر تركيب المجتمع المسـلم ، والفرد في هذا المجتمع المسـلم إنما يفعل ذلك وهو مسـتكمل الشـعور الإرادي والمعرفـة المدركة بأنـه يضحّي برغبتـه الذاتية ليحقـق مصلحـة لمجتمعه ، يلحقـه أثرها كما يلحـق أي فرد من أفراد المجتمع ، واستكمالُ الشعور الإرادي والمعرفة الواعيةينفي المخادعة ويزيل الشـكوك ، ويدفع إلـى العمل الإيجابي الجاد في تحقيق مصلحة المجتمع التي هي مصلحة كل فرد فيه .

فالمؤاخاة التكافلية باعتبارها أقوى الدعائم التي يسـتند عليها بناء المجتمع المسـلم في ماضيه وحاضره ومستقبله هي الأساس في هـذا المنهـج الاجتماعي الذي يجـب أن يعود إليـه المجتمع

المسلم في حياته كلها، وهي الأساس في قدرة المجتمع المسلم على مواجهة المجتمعات المعادية له التي تقف منه مواقف الحقد والبغي، حتى يستطيع أن يثبِّت أقدامه في مسيرته الداعية إلى توحيد الله وإخلاص العبودية له وحده، والتخلص من صور وأشكال الوثنية المادية الملحدة، ويقف في مواجهة هذه المجتمعات الملحدة المادية وهي في عنفوان قوتها المادية المدمِّرة الهائلة التي تهدِّد الحياة بالفناء، إن لم تجد مواجهة قوية من القوى المقابلة لها.

والمجتمع المسلم بما وضع الله في يده من وسائل القوة المادية والروحية هو الذي يستطيع - إذا أراد قادته وهم مسئولون بين يدي الله، مسئولون أمام التاريخ - أن يدفع في صدر هذه القوى الشريرة المدمّرة، التي اتخذت من العلم سلاحًا تخريبيًا، إذا استطاع بوسائله وإمكاناته المتاحة في هذا العصر أن ينهض إلى إعداد ما يستطيع من قوة مرهبة بجميع أنواعها وألوانها الإيجابية والسلبية في أرضه وسمائه، وبره وبحره وجوه، وإذا استطاع أن يعيد تركيبه الاجتماعي ليصحِّح ويثبت وجوده بالتقارب المتآخي الموحِّد بين أممه وشعوبه، وبالمؤاخاة المتكافلة التي تجعل من شتات قوى المجتمع المسلم، قوة موحَّدة تمثل روح

هـذا المجتمع، يوم أن كانت المؤاخـاة التمازجية هي التي تحكم اعتصامـه بمنهجه الاجتماعي، وتقوده إلى منـازل النصر المؤزر، وتضفي عليه هالة من إشراق هدايته وهو يمشي في مسيرته هاديًا وداعيًا إلى الله ومبلِّغًا رسالته إلى العالمين.

❀ ❀ ❀

الفهـــرس

❀ ❀ ❀